فيكتور هيجو

أحدب نوتردام

رواية

تقديم ومراجعة

د. أحمد منصور

الكتاب: أحدب نوتردام.. (رواية)

الكاتب: فيكتور هيجو

تقديم ومراجعة: د. أحمد منصور

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية


هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

هيجو ، فيكتور

أحدب نوتردام.. (رواية) / فيكتور هيجو , تقديم ومراجعة: د. أحمد منصور

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٦٠ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٣ – ٢٧ – ٦٨٢٣ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٩٨٦٦ / ٢٠٢٠

أحدب نوتردام
(رواية)



تقديم

الأدب الخالد لا يتقادم، ولا يفقد قيمته وتأثيره، فهو يعبر عن القيم والمشاعر الإنسانية في أجلى وأعمق معانيها، لذلك تمر القرون ولا زلنا نقرأ ديوان المتنبي ونستدعي حكمته كلما استدعى الموقف ذلك، ولا زلنا نقرأ شكسبير رغم رحيله منذ قرون، وأيضا مازال فيكتور هوجو موجودا بإبداعاته التي لا تفقد جدتها على الرغم من إنه توفي راحلا عن عالمنا قبل ١٣٥ عاما، تحديدا في باريس في ٢٢ مايو ١٨٨٥م، وخير مثال على ذلك رائعته " أحدب نوتردام".

إن رواية "أحدب نوتردام" التى عادت للواجهة من جديد، فأعيد إصدارها وملأت واجهات المكتبات في عواصم العالم بعد الحريق المروع الذى شهدته كاتدرائية نوتردام في ٢٠١٩م، ليس معنى ذلك أن الرواية كانت قد نسيت أو تعرضت للإهمال ثم نفض الحريق عنها غبار النسيان، فقد أنتج عنها حتى الآن ثمانية عشر فيلما عالميا، وخمس مسرحيات والكثير من العروض الموسيقية والغنائية، بالإضافة إلى عدة عروض للبالية، هذه الأعمال عالجت الرواية بشكل مباشر، وهناك العشرات غيرها اقتبست من الرواية أو استلهمتها محولة إياها إلى منتج محلى بحسب مكان العرض عربي أم إفريقي أم أسيوى وهكذا، فهوجو رغم محلية موضوع روايته

ظاهريا وارتباطها مكانيا بكاتدرائية نوتردام إلا أنه خلص منها إلى معان إنسانية تجاوزت بها حدود مكانها المحدد ولحظتها التاريخية، وهذا سر خلود الرواية رغم مضى السنين.

والشهرة الفائقة التي حققتها الرواية ليست استثناء بين أعمال الكاتب فرائعته البؤساء حققت نجاحا مماثلا فتعددت ترجماتها إلى كل اللغات الحية، وتوالت طبعاتها، كما تعددت المعالجات المسرحية والسينمائية لها، ومثل ذلك بقية أعماله التي تنوعت بين الرواية والمسرحية والشعر والمقالات.

ولد فيكتور هوجو في ٢٦ فبراير ١٨٠٢م في بيزنسون بإقليم دوبس بشرق فرنسا، وكان هو الابن الثالث لجوزيف هوجو، الذي كان ضابطًا في جيش نابليون، أما أمه فهي صوفيا تريبوشيه التي كانت ابنة لضابط في البحرية، وكانت الحياة الزوجية لوالديه تواجه بعض المشكلات التي لم يستطيعا التغلب عليها فانفصلا رسميا وهو في السادسة عشرة، وكانت الأم قد سبق أن تركت إقليم دوبس وعادت إلى بيت أسرتها في باريس مصطحبة الطفل فيكتور وكان يومها في الثانية أخذته والدته للعيش معها في باريس، في حين كان والده يؤدي الخدمة العسكرية، وقد أحب فيكتور باريس وكان يقول عنها "المكان الذي ولدت فيه روحي".

درس هوجو الحقوق، وقبلها درس في الأدب اللاتيني، وفي عام ١٨٢٢م نشر أول ديوان شعري بعنوان "أناشيد وقصائد متنوعة" والذي لقي ترحيبًا ومكافأة من الملك لويس الثامن عشر، وفي العام نفسه تزوج

من صديقة طفولته أديل فوشيه ، واستمر بعدها في كتابات متنوعة بين النثر والشعر والدراما والمقالات السياسية، واشتهر ضمن من أطلقوا على أنفسهم "الكتّاب الرومانسيين"؛ وفي مارس عام ١٨٣١م نشر روايته "أحدب نوتردام"، التي أكد فيها موقفه المناهض لعقوبة الإعدام، وقد لاقت الرواية نجاحًا كبيرا على مستوى العالم، ومنحت هوجو مكانة مهمة في تاريخ الأدب الفرنسي، وتعد هي و"البؤساء" أشهر روايات الأدب الفرنسي، أما دواوينه فمنها: تأملات، أسطورة العصور، ومن مسرحياته ورواياته: مجنون كرومويل، من أوراق شجر الخريف، الملك يتسلى، الأصوات الداخلية، الأشعة والظلال، عمال البحر، أغانى الشعب والخشب، الرجل الذى يضحك والعام الرهيب، كذلك كان هوجو رساما متميزا لازالت لوحاته تعرض في المتاحف إلى اليوم.

وفي ديسمبر عام ١٨٥١م وبعد أن استولى لويس نابليون على السلطة في فرنسا ونصّب نفسه إمبراطورًا، شارك هوجو في حركة مناهضة له، ولكنها فشلت، فترك فرنسا مع عائلته وعاش في المنفي حتى عام ١٨٧٠م وأثناء إقامته في المنفي نشر أعمالًا أدبية كثيرة كان أشهرها "البؤساء"، والتي تتناول جوانب إنسانية بحتة تحدث فيها عن الحب والحرب والطفولة المفقودة، ليعود بعدها إلى فرنسا باعتباره أهم أدبائها.

وقد انتخب هوجو نائبًا عن العاصمة باريس في فبراير من عام ١٨٧١م لكنه استقال في مارس بعد وفاة ابنه شارل، وأسس "جمعية الأدباء والفنانين العالمية" وأصبح رئيسًا فخريًا لها في عام ١٨٧٨م، وفي

الثاني والعشرين من مايو عام ١٨٨٥م توفي "هوجو" إثر مرض أصاب رئتيه، ودفن تحت قوس النصر، وتمّ تكريمُ ذكراه بوسائل عديدة، لعل من أبرزها وضع صورته على الفرنك الفرنسي.

صدرت الطبعة الأولى من الرواية في عام ١٨٣١م ، وكان قد بدأ في كتابتها إثر حريق التهم الواجهة الجنوبية للكاتدرائية، تتحدث الرواية عن "كوازيمودو" الذي يعانى من تشوه ظهره ومظهره المتدني ورفض المجتمع الباريسي له، فلم يجد مكانا يأويه إلا الكنيسة حيث اختاره القس لمهمة قرع الأجراس .

أبقى القس كوازيمودو في الكنيسة دائما ، وكأنه سجين ليتفادى نظرة الناس المرتابة منه والمحتقره له ، وفي يوم من الأيام اختير الأحدب ليكون زعيما للمهرجين في حفل تنكري أقيم في باريس، حيث يبدأ دور الراقصة الغجرية التي تدعى "أزميرالدا"، والتي يحاول القس أن يتقرب لها ويقنعها بحبه ولكنها ترفضه، غير أن الأحدب يعجب بها، وهنا يبدأ الصراع النفسي والإنساني الذي يبرز معاناة الطرفين ، فيراقب الأحدب الراقصة الغجرية سرا من مكان لآخر حتى يتعرض لها أحد الأشرار فيدافع عنها، ويقع هو في يد السلطات، حيث يتم عقابه بالجلد في ساحة عامة، فتخرج أزميرالدا أمام الناس وتعلن أسباب ما فعله الأحدب ، ومع استمرار رفضها للقس يدبر لها مكيدة، ويقتل أحد الوزراء بسكينها الذي يحمل اسمها، فتواجه هي التهمة، ويحكم عليها بالإعدام ، لكن الأحدب يستطيع

تهريبها، ويحدث أن يكتشف الملك القاتل الحقيقي، فيأمر بالقبض على القس، الذي ينتقم من الأحدب بقتله.

هكذا يسائل فيكتور هوجو في روايته عالما على وشك الانهيار، فيختار كوازيمودو وإزميرالدا، اللذين يتبدل موقعهما في الحياة، بحيلة ماكرة تدبرها فرقة الغجر التى تعبر باريس، فيختطفون إزميرالدا، ويضعون مكانها طفلا قبيحا هو كوازيمودو، فتفزع أم إزميرالدا لرؤيته، وحين تأخذه سيدتان عجوزتان إلى الكنيسة يراه القس كلود فرولو، فيتعاطف مع مأساته، ويتبناه، ويطلقه داخل كنيسة نوتردام، ويصبح قارع أجراسها، وهناك يألف العزلة، ويرى في الابتعاد عن البشر وسيلة لمداراة عاهته، وقبح منظره، لكن إزميرالدا تخرجه من عزلته، فقد صارت راقصة غجرية فاتنة، تطمح في العودة إلى أمها ولو بعد حين، محتفظة بقلادتها الدالة عليها، والقس كلود فرولو يقع في غرامها ، ويلجأ إلى تابعه كوازيمودو الذى صار مسخا منقادا إليه كي يختطف الفتاة، ثمة مشاعر مركبة هنا بين تبعية كوازيمودو لكلود فرولو وحبه الشديد له بوصفه من منحه عزلته الآمنة بمحبة وصدق، وهذا التداخل يدفع بالأحدب إلى طرح عشرات الأسئلة عن موقف الأب الحاني، الذى تغير، والذي لم ينقذه يوم وضعه على عمود التشهير.

وتبدو الصورة السردية التى يصنعها فيكتور هوجو دالة وصافية ، فكلود فرولو المقبل بحصانه سرعان ما يتراجع، وتتقدم إزميرالدا لتمنح الأحدب الماء الذى نطق باسمها وسط حالة من السخرية من الحشد الذى يتندر عليه ويقذفه بما في يده ، وتتحقق المفارقة الساخرة من كون الأحدب

كان ينفذ أوامر سيده فرولو فحسب، من جهة، وكون أزميرالدا التى منحته الماء وأمدته بقوة من الجمال اللانهائى هي من تعرض لها الأحدب محاولا إحضارها إلى سيده المستبد..

أما المفارقة فتتحقق عبر مشهد التنكيل بإزميرالدا، ووضعها فيما بعد على عمود التشهير متهمة بقتل الوزير، وحين يبدأ الأحدب في تبين مشاهد الجمال في العالم المحيط يوضع على عمود التشهير، وحين يطمئن إلى إزميرالدا يجدها في ورطة لا نهائية، وحين يثق في فرولو يجده شخصا آخر غير الذى رباه، يبدو كل شيء هنا نسبيا، فالمشاعر المضخمة بيقين مراوغ جارفة دوما، في رواية تعبر بجلاء عن جانب من المشهد الأوروبى في أواخر القرون الوسطي.

وعلى الرغم من التغني بالألم الذى صاحب المرحلة الرومانسية بشكل عام شعرا ونثرا، ومن بين أهم كتابها فيكتور هوجو، وهي المدرسة التي تميزت أيضا بالمبالغة في الانفعالات، ولعل روايته الشهيرة البؤساء تؤكد ذلك، فإن حالا من الرغبة في استكشاف مساحات إنسانية أعمق داخل سيكولوجية الشخصيات الروائية تعد سمة مميزة للرواية، فالأحدب ليس ذلك الرجل قبيح المنظر فحسب، لكنه المتماهى مع ما يحبه أيضا، مع إزميرالدا التى تنقذه فتأسره بجمالها الخارجى والداخلي، وفرولو الذى يحبه لأنه علّمه يوما ما، والأجراس التى أصابته بالصمم، لم يكن يستعذب شيئا مثلها، لتظل روحه الحية والنابضة والتى تتأبى على الموت والعاهة والعزلة والصمم. بقي أن نشير إلى أن الرواية نتيجة شهرتها الكبيرة يعتقد البعض

أنها مبنية على وقائع وشخصيات حقيقية، وخاصة مع معرفتهم أن الدافع لكتابتها كان الحريق الذي التهم واجهتها الجنوبية في عام ١٨٣٠م ، لكن الحقيقة التي أعلنها المؤلف وأكدها دارسوه فإن أحداث الرواية وشخوصها من نسج الخيال، وكان الهدف منها التعبير عن موقفه الرافض للكنيسة، فقدم شخصية القس بكل تناقضاتها وشرورها الكامنة وتآمراتها، فكأن زيف إيمان القس كان هو السبب في احتراق الكنيسة التي كان يؤمها هوجو باعتباره مؤمنا يداوم على الصلوات.

د. أحمد منصور



في القاعة الكبرى

في اليوم السادس من شهر يناير ١٤٨٢ استيقظ الباريسيون على دقات النواقيس التي انبعثت من جميع الكنائس، ومن الجامعة، فملأت جو العاصمة الفرنسية بضجة لم يعهدها سكانها إلا في الأيام المشهودة، من أفراج النصر، أو أيام الأعياد، أو مولد صاحب التاج أو وريث له. بيد أن ذلك اليوم لم يكن يوما من تلك الأيام التي يكتب لها أن تعيها حافظة التاريخ، فلم يكن دوي النواقيس في ذلك الصباح الشاتي في مدينة باريس، لأمر من الأمور جلل، أو لحدث من الأحداث جدير بالتهليل أو التذكار حفي بالتحية والأكبار.

فما كان ذلك اليوم إلا خاتمة أيام عيد الميلاد من تلك السنة. وقد عقدت النية على إقامة محرقة هائلة في ميدان الاعتصام، أوسع ميادين باريس، وحول تلك الجذوة الضخمة تتجمع حشود الشعب وأخلاط العامة، فيستشعرون الدفء في برد الليل، وتنحر الذبائح فتشوى على تلك النار العظيمة، مأدبة مبذولة للسوقة، وطرفة يتحف بها الحكام رعيتهم الجياع. ولئن أقيمت تلك المأدبة الشعبية الراقصة عند حلول المساء، فهي الختام الرائع ليوم يصرفه الناس في التهليل والتهريج والفرجة.

فلا عجب أن يصحو الناس على دقات تلك النواقيس وقد ملأهم الجذل والحبور، فنشطوا خفافا، واندفعوا أفواجا إلى مواطن اللهو منذ صحوة النهار.

ولما كان الناس– منذ عرفت الأرض حاكما ومحكوما، وسيدا ومسودا، وأمراء وسوقة– نزاعين إلى التمتع بمظاهر البذخ، واحتلاء مراسم السلطان، فقد كانت قبلة الكثرة الغالبة من أهل باريس حين اعتدل ميزان النهار هي قصر العدل، لأنه كان معلوما للكافة أن وفد سفراء بلاد الفلاندر– الذين وصل ركبهم إلى باريس منذ يومين– سوف يحضرون حفلا تمثيليا صاخبا يقام في القاعة الكبرى من ذلك القصر. وفي ختام التمثيل ينتخب الناس "أمير المغفلين"!

وقصر العدل هو أقدم ما عرفته باريس من دور الملوك فيها، فقد كان الملوك لأول عهدهم لا يعرفون بسمة تميزهم أو شارة ترفعهم فوق أقدار الكافة غير سمة العدل وشارة القضاء، يأخذون من القوي للضعيف، وتطمئن القلوب إلى عدالتهم وتنزههم عن الهوى. فكان أول ما أقيم لهؤلاء الملوك الأولين من بيوت معروفا للجميع بشارة الملك وقتئذ وهي العدل المحض، فإذا قيل بيت الملك فقد قيل دار العدل. ثم مضى ذلك العهد، وهجر الملوك مهمة العدل ليستظلوا بمظاهر الأبهة والجاه، فكان طبيعيا أن يهجروا قصر العدل يأتيه الناس فلا يجدون فيه من العدل إلا مكانا خاويا على عروشه، فبقي الاسم وذهب المسمى، آية على أن العدل قد بات اسما على غير مسمى. وكذلك كان قصر العدل بقاعته الكبرى مكانا تقام

فيه الحفلات والمهارج، بعد أن كان هيكلا يساس فيه الملك ويدير فيه الحق ويعز به اليقين.

ولماذا تقام الحفلات الكبرى في ذلك القصر العتيق؟

لأن قاعته الكبرى كانت أرحب قاعة عرفها العالم الأوربي لذلك الزمان، فهي تراث باق من ذلك الزمن الذي كان فيه ملوك فرنسا يتصدرون في تلك القاعة ساحة القضاء على رؤوس الأشهاد، ويباح الحضور لكل إنسان قياما بحق الرعية على الراعي، وإقرارا بأن العدل عدل الناس كافة، وأن من ظلم إنسانا واحدا فقد ظلم الناس جميعا وأن القصاص ورفع المظالم أمر يعني الناس كافة، فمن حقهم جميعا أن يشهدوه كي تطمئن إلى العدل نفوسهم وتنشرح للولاء للملك صدورهم. أما اليوم فقد بات المحراب مهجورا من العابدين، وتحطم الصنم، فأصبح موضع التقديس ملهى وملعبا، آية على انتكاس الأمور، وانحدار الخلق واضمحلال مقومات الدولة.

* * *

ولم يكن الوصول إلى هذه القاعة الكبرى في ذلك اليوم. والدخول إليها، من هينات الأمور، ذلك لأنها ضاقت بما رحبت بأفواج الناس، وكانت الساحة التي يطل عليها وجه القصر تموج بالناس، فكان الناظر من نوافذ القاعة يقع بصره على مثل البحر الطامي من هامات الخلق. أجل بحر خضم، تصب فيه أفواه خمسة أنهر أو ستة، هي الشوارع الكبرى

المؤدية إلى تلك الساحة. وكان فيض هذه الأنهار من الرؤوس البشرية غزيرا لا ينقطع له مدد، ولا ينضب له معين.

ولم يكن وجه الشبه بين اليم وذلك الزحام محصورا في المنظر والكثرة والحركة، بل كان يمتد إلى الصوت والضجة، فالهتاف والصياح والضحك كانت كلها تختلط فتصافح الأذن في مثل هدير الموج أو هزيم الرعد.

أما القاعة نفسها فكانت قد غصت بالوافدين إليها منذ بزوغ الشمس حتى لم يبق فيها موضع لقدم. والفضل في ذلك لنواقيس باريس التي حفزت الناس منذ بكرة الصباح أن يستبقوا إلى تلك القاعة، والسعيد السعيد منهم من ظفر بمكان طيب فيها يشهد منه طلعة السفراء، ويرى التمثيل، وفي القاعة وقاء ليس له نظير من عوارض الجو وبرودة الزمهرير. وفي نوافذ البيوت المحيطة بساحة القصر، وفوق الأسطح والشرفات وقف آلاف من الناس ينظرون باهتمام وهيام إلى ذلك القصر، وإلى الجموع الحاشدة في ساحته. ذلك أن الكثيرين من أهل باريس كان حسبهم للانشراح والاهتمام أن يشاهدوا المشاهدين ويتفرجوا على المتفرجين، ومن لم يهيأ له أن يشهد الحفل الحافل، فله غناء في شهود الجدار الذي يجري وراء الحفل، ومن فاته اللحم لم يفته المرق، ولو كان المرق واجهة قصر كل ما تتميز به أن الناظر إليها يعلم ويحس أنها تخفي من ورائها احتفالا وتمثيلا..

وفي وسط القاعة الكبرى، فبالة الأكبر منصة كبيرة غطيت بالديباج المذهب، وكان لها من الخلف مدخل خاص، فهي أشبه بمقصورة ملكية،

وقد خصصت هذه المقصورة للسفراء الذين حرصت الدولة على تكريمهم غاية التكريم، وكيف لا، وقد جاءوا إلى باريس يحفون بالأميرة "مرجريت" عروسا لصاحب السمو الملكي ولي العهد، ويشارك السفراء في هذه المقصورة كبار المدعوين لشهود ذلك التمثيل.

وفي نهاية القاعة مائدة ضخمة جدا من الرخام، لها شهرة عريضة، لأنها أكبر مائدة في العالم مصنوعة من قطعة واحدة من الرخام. وفوق هذه المائدة الضخمة ستدور مشاهد التمثيل، فمنذ الصباح الباكر عكف العمال المختصون على تهيئتها كي تبدو مسرحا مناسبا، بما أضيف إليها من أستار ومناظر. ثم وقف عند أركان المائدة الأربعة أربعة خفراء من رجال عمدة باريس، بمثابة ديدبانات يحرسون مداخل ذلك المسرح المرتجل من تدافع الناس وتزاحمهم. وكأنما كتب لهذه المائدة أن تكون على الدوام موضع حراسة، سواء في أيام السرور أم في أيام الشر والخطر. فهؤلاء الخفراء الأربعة ينبغي أن يكونوا على أركانها في كل مناسبة، عندما تخصص لمحاكمة أو تعذيب أو إعدام، وعندما تخصص– كما خصصت اليوم– للتمثيل.

وكان المفروض أن يبدأ التمثيل عندما تدق ساعة القصر الكبيرة اثنتي عشرة دقة مؤذنة بحلول الظهر. ولئن كان هذا الوقت يعتبر في نظرنا ساعة مبكرة جدا لابتداء التمثيل، فإنه كان يعتبر في ذلك العصر ساعة متأخرة جدا لابتدائه. ولكن لا حيلة في ذلك، لأن الحفلة كان المقصود

منها تكريم السفراء، فلا مناص من تحري الوقت الذي يوافقهم ويناسب برنامج زيارتهم الحافلة.

ولما كان الناس قد بكروا إلى مواقفهم في القاعة وفوق نوافذها وفوق درج سلمها العريض المكشوف لعوارض الجو، فقد بدأ التذمر يسري بين صفوفهم وهم يستبطئون زحف الزمن، فكان منهم من يحدث جاره شاكيا على غير معرفة سابقة به، وأي معرفة رسمية يحتاج إليها قوم جمع بينهم الفضول ونشدان السرور؟ بل جمع بينهم الموقف الشاذ متعلقين بعوارض الأعمدة العالية أو بالأكتاف التي تزين جدران القاعة الشاهقة الارتفاع. فالموقف نفسه فيه من عناصر الطرافة والفكاهة ما يرفع الكلفة ويغري بالثرثرة والتكاشف، وتسلية الانتظار بالهرج والنكات وعناصر الترفيه دفعا للملالة عن أنفسهم. فكنت تسمع من يقول أنه جاء عند الفجر، فيجيبه آخر أنه بات ليلته على درجات السلم أمام الباب المغلق حتى يكون أول الداخلين، فلما فتح الباب في الصباح وجد القاعة ملآنة، كأنما سكنتها الشياطين بطريقة غامضة. ثم راح الطلاب، وهم الكثرة الغالبة من الشبان المرحين المحتشدين، يتبادلون النكات والتعليقات اللاذعة على كل من يفد من كبار المدعوين، وكان أعظم هؤلاء الطلاب مرحا طالب عربيد نحيف الجسم ذهبي الشعر، كان يرابط فوق إحدى النوافذ جاثما على بطنه اسمه "جيهان". فما أن رأى مدير جامعته يتهادى نحو مكانه من المنصة، حتى صاح بصاحب له:

– أولني معروفا لا أنساه لك أيها الزميل، فإني في وضع لا أملك فيه حرية أعضائي، وقد نذرت لله أن أنتهز أول فرصة لمصافحة أم رأس السيد العميد بإحدى فردتي حذائي. فخذ وحياة أبيك الفردة اليسرى، فإنها شر الفردتين وقم عني بهذا الواجب!

ولكن قدر للسيد العميد الهمام ألا يظفر بهذه التحية المباركة، إذ دقت في هذه اللحظة ساعة القصر، فحدث هرج ومرج وتعلقت الأنفاس تنتظر الهدية الموعودة، وهي انفراج ستائر المقصورة عن السفراء الأجلاء، يتقدمهم صاحب الدعوة وممثل الدولة صاحب السمو والنيافة الكاردينال دي بوربون، وانفراج الستائر الأخرى عن المسرح إيذانا ببداية التمثيل. وكان المفروض أن يتم ذلك كله في وقت واحد هو انتصاف النهار، ولكن شيئا واحدا هو الذي لم يتخلف عن موعده وقد انتصف النهار، ألا وهو رنين دقات الساعة. أما الكاردينال ومدعووه السفراء، وأما ستارة المسرح، فقد تخلفوا، وتعلقت الأنظار والأنفاس دقيقة وخمسا وعشرا دون أن يفتح الله على الناس بما كانوا ينتظرون منذ الصباح. فسرت غمغمة السخط بين الناس، ثم زاد السخط فأضحى تذمرا، ونما التذمر حتى انقلب تمردا. وقاد حركة التمرد ذلك الشاب المهذار جيهان، فقد أخذ يصيح وهو منبطح في مكانه فوق النافذة، وعصابة الطلاب من حوله تردد صياحه:

– التمثيل! ليبدأ التمثيل فورا! لن ننتظر الكاردينال!

فردد الناس من ورائه ذلك الهتاف مصفقين:

– إلى المسرح أيها الممثلون! إلى الجحيم يا كاردينال!

وعاد جيهان إلى الهتاف:

– ليبدأ التمثيل فورا، أو نحطم المسرح ونذبح الخفراء!

ورددت الجماهير ذلك الوعيد، وقد أبهجها تصور عملية الهجوم على المسرح وتمزيق أشلاء السادة الخفراء، فارتعدت فرائص هؤلاء السادة الأربعة، وراحوا يجيلون الطرف في الناس على وجل، ثم يتخالسون النظر فيما بينهم وقد وجفت قلوبهم، ولاسيما حين رأوا الناس يتحركون صوبهم، فتراجعوا يلتمسون النجاة لأنفسهم.

وعندئذ تقدم لإنقاذ الموقف رجل برز من وراء ستارة المسرح، فكان لظهوره المباغت وقع حاسم لدى الناس، لأنهم أدركوا أنه رسول يحمل إليهم خبرا عن موضوع تشوقهم وتذمرهم، ألا وهو التمثيل، فسكت الناس كأن على رؤوسهم الطير، ولكن ذلك لم يهدئ من روع الرجل الذي كان يتلعثم وهو يخاطبهم قائلا:

– لقد قيض لنا اليوم أن ننال شرفا عظيما جدا هو القيام بالتمثيل بين يدي صاحب السمو والنيافة مولانا الكاردينال دي بوربون. ومن دواعي الفخر أن أقوم أنا شخصيا بدور جوبيتير في هذه الرواية الأخلاقية التي عنوانها "الاختيار الحكيم"، وسيرتفع الستار في اللحظة التي يصل فيها صاحب السمو والنيافة راعي الحفلة.

وكان جوبيتير يخاطب الجماهير في ثياب التمثيل التي تناسب دور رب الأرباب، من خوذة كبيرة لامعة، ودرع مذهبة، وثياب سوداء اللون مطرزة بالقصب. وكان طبيعيا أن يتسلى الناس بمنظره ويذهب عنهم شيء من ثورة غضبهم، بيد أن خاتمة خطبته بددت هذا الأثر الجميل الملطف، فأخذ الناس يتصايحون من جديد بقيادة الطالب جيهان:

– بل الآن.. الآن!

– فليسقط جوبيتير، وليسقط الكاردينال دي بوربون!

– التمثيل حالا! حبل المشنقة ينتظر الجميع، من الممثلين إلى الكاردينال، إن لم يبدأ التمثيل فورا!

فاكفهر لون رب الأرباب، وشعر أن ركبتيه تخذلانه، وأنشأ يغمغم كلمات متناثرة لا مفهوم لها من قبيل:

– صاحب النيافة.. السفراء.. الأميرة مرجريت..

والحق أن الرجل كان زائغ العينين بين مشنقتين لا مشنقة واحدة، فهو يخشى إذا خالف الجمهور أن يشنقه في التو واللحظة، ويخشى كذلك إذا أذعن له أن يشنقه صاحب النيافة!

وقيضت له السماء من أنقذه في هذه اللحظة، فقد برز من خلف عمود من أعمدة القاعة قريب من المسرح شاب كان حتى تلك اللحظة يلتزم الصمت ولا يشارك في التهريج والتمرد، فتقدم وصاح ينادي

جوبيتير، ولكن صوته ضاع بين أصوات الهاتفين بسقوط جوبيتير فلم يستلفت نظر الممثل، وعندئذ ناداه الشاب باسمه الحقيقي، لا بالدور الذي يمثله:

– يا ميشيل جيبورن!

فرفع رب الأرباب المكروب رأسه كمن أفاق من حلم مروع وصاح:

– من الذي يناديني؟ إلي ها هنا صديق؟

– إنه أنا..

فلما نظر إليه الممثل سرى عنه، وابتدره الآخر قائلاً:

– أبدأ التمثيل فورا كي تهدأ ثائرة الناس، وسأتولى أنا مشقة تهدئة روع السيد العمدة، الذي سيقوم من جهته بتطييب خاطر السيد الكاردينال.

فاسترد جوبيتير أنفاسه اللاهثة ورفع يده يدعو الناس إلى الصمت ثم قال:

– أيها السادة، يا أهل باريس، سنبدأ التمثيل فورا!

فدوت القاعة بالتصفيق الحاد، ثم أخذ الطلاب الماجنون يصيحون بقيادة جيهان:

– مبارك الآتي باسم الرب! مبارك جوبيتير!

وكانت هذه التحية جزءا من أنشودة كنائسية مشهورة يمجدون بها السيد المسيح. فكان ذلك النشيد علامة صارخة على التنذل والمجون بين طلاب باريس، في عهد كانت للتقاليد الدينية سطوتها العاتية.

* * *

واستمر الهتاف لجوبيتير بعد أن اختفي وراء أستار المسرح، أما الشاب الذي تدخل لإنقاذ رقبته، فقد كمن كما برز خلسة وراء العمود، وقبع في مكانه لا يحرك ساكنا، إلا أن فتاتين كانتا بالقرب منه لفت نظرهما ما كان لمسلكه من تأثير سحري، فتمسحت به إحداهما، فلما سألها متلطفا:

– أتكلمينني يا آنسة؟

– لست أنا التي نادتك، وإنما هي صاحبتي هذه جيزيل.

فانبرت الأخرى تقول وقد تضرج وجهها:

– بل أن "لينا" هي التي تريد أن تكلمك.

ثم غضت الحسناوان عينيهما في حياء وخفر، ووجد الشاب في نفسه ميلا إلى التقام الطعم الذي قصدت به الفتاتان أن تجراه إلى التعرف بهما والتحدث إليهما، فابتسم قائلا:

– استنتج من هذا أنه ليس لدي أي واحدة منكما ما تقوله لي:

فقالت جيزيل:

– لا شيء طبعا على الإطلاق.

وقالت لينا:

– أبدا، لا شيء.

فأوشك الشاب أن يتراجع مطويا على نفسه كسابق عهده، لولا أن لينا وصاحبتها عقدتا العزم على ألا تدعاه يبتعد عنهما، فقالت لينا متشجعة:

– أراك يا سيدي تعرف ذلك الجندي الذي سيؤدي في هذه الرواية دور سيدتنا العذراء المباركة مريم؟

– لا شك أنك تعنين دور جوبيتير؟

– وا خيبتاه! طبعا هذا ما أعنيه.

– نعم، أني أعرف ميشيل جيبورن.

– أن له لحية رهيبة.

وعندئذ فتحت الأخرى فمهما وقالت على استحياء:

– وهل سيكون تمثيلهم شائقا؟

– أنها مسرحية جديدة، تمثل اليوم لأول مرة.

– وهل ستكون فيها أغان غرامية؟

– هذه يا آنسة رواية أخلاقية، ألفت خصيصا لهذه المناسبة الجليلة، مناسبة زواج سمو ولي العهد من سمو الأميرة مرجريت. فالأغاني الغرامية لا تتفق وموضوع هذه الرواية.

فتأوهت جيزيل وقالت:

– يا للخسارة!..

فقال الشاب متلهفا:

– ولكن ثقا أن هذه الرواية ستكون أروع من أي رواية أخرى شهدتماها من قبل في هذه القاعة.

– أواثق أنت مما تقول؟

– أيما ثقة! يكفي أن تعلما أنها من تأليفي.

فصاحت الفتاتان في صوت واحد:

– أحقا؟.. هل أنت مؤلفها أم نراك تمزح؟

– بل أني لا أقول ألا حقا فقد اشتركت مع زميلي جيهان في إعداد كل شيء، فقام هو بنشر الألواح الخشبية وإعداد المناظر وأعمال النجارة كلها اللازمة للمسرح، وقمت أنا بكتابة الرواية، وأسمي أيتها الآنستان "بيير جرنجوار".

وكان قد نفخ في صدره وهو ينطق باسمه بكل زهو، وكأنه يقول "اسمي بيير كورني".

ولا شك أن القراء قد لاحظوا أن ذلك الحوار القصير بين المؤلف الفاضل والحسناوين قد استغرق دقائق منذ أعلن جوبيتير أن التمثيل سيبدأ فيا لحال. وقد انقضت هذه الدقائق ولما يبدأ التمثيل، ولكن الوعد الذي بذل للجمهور كان كافيا لتهدئة ثائرته، كما هو شأن الجماهير في كل زمان. ولكن جيهان كان بالمرصاد، فراح يصيح بأعلى صوته:

– جوبيتير! جوبيتير! أين أنت يا جوبيتير؟ هل تعبث بنا يا حليف الشيطان؟ التمثيل حالا وألا فالويل لكم!

وكان ذلك الإنذار كافيا لبث الرعب في قلب رب الأرباب من وراء الستار، فتوالت الدقات فوق المسرح تنبيها للفرقة الموسيقية الجاثمة تحت المائدة التي اتخذت مسرحا، فأخذت أنغامها ترتفع، ثم ارتفعت الستارة عن أربع شخصيات تقوم بفصل تمهيدي، والواقع أن الجمهور عنى بملابس الممثلين أكثر مما عنى بأي شيء آخر، فراح يصفق، وأخذ الممثلون ينحنون تحية للناس فيزداد التصفيق، وكان في القاعة شخص واحد على أحر من

الجمر، يستعجل الصمت الذي يتيح للممثلين أن يبدأوا. وكان هذا الشخص هو جرنجوار.

فلما سكتت العاصفة التي أثارتها الأكف، راحت الشخصيات الأربع، بملابسها العجيبة، وقد نقش على ذيل ثوب كل منها اسم شخصيته، تتراشق بأبيات الشعر الجزل، فتحول جرنجوار عندئذ إلى تمثال ممطوط العنق مرهف الأذنين، فلو كان واقفا على المسرح لكتبوا فوق ذيله "الإصغاء".

ولم يلبث إلا قليلا حتى انتشى بتلك النشوة الفذة التي يشعر بها المؤلف وهو يسمع مخلوقاته الصغيرة، تلك الكلمات والعبارات، وقد بعثت حية على أفواه الممثلين وفي أسماع المشاهدين. وكانت هذه النشوة حرية أن تطول حتى تبلغ الرواية ختام فصلها الأول، لولا أن حدث حادث قطع عليه تلك النشوة، وذلك أن سائلا رزي الثياب كان قد احتل منذ الصباح الباكر موضعا قريبا من مقصورة السفراء، ولكنه لم يجد في المجموعة المحيطة به من يتصدق عليه، كما أن أصابعه لم تجد في جيوبهم ما يعوضه عن وقته الضائع في الانتظار ومشاهدة التمثيل، فأراد أن يستلفت أنظار من في القاعة، مستغلا ذلك الصمت الذي سادها، فقفز قفزة بارعة حتى احتل مكانا فوق حاجز المقصورة الملكية. وكأنه أشفق أن يعكر على الناس صفو الاستماع، فلم ينبس ببنت شفة. وإنما اكتفى بالتلويح بأسماله المهلهلة وبالجرح الغائر البشع الذي كان يشوه ذراعه الأيمن.

وكان جيهان الماجن أول من فطن إلى وجوده هناك. فلم يستطيع مغالبة الضحك الذي كان يهتز به كيانه. وانفجر صائحا في ذلك الصمت التام:

– انظروا إلى هذا العفريت الصعلوك، يجعل من مقصورة الملوك منبرا للتسول.

أرأيت صفحة البحيرة الساكنة وقد ألقى فيها فتى عابث بحجر؟ أن الضفادع التي تفيض بها تلك البحيرة تخرج عندئذ من مكانها وتشق الفضاء بأصواتها المنكرة ونقيقها الصاخب. كذلك فعلت صيحة جيهان في صمت تلك القاعة، فارتفع نعيق النظارة من كل مكان، واتجهت الأنظار والأصابع نحو ذلك المتسول العربيد.

وهل شهدت الصاعقة تنقض، أو رأيت مس الكهرباء يصيب إنسانا فيصعقه لتوه؟.. ذلك حال صاحبنا جرنجوار، حين قطعت عليه نشوته تلك الصيحة الرعناء، فريع ارتياعا شديدا.

أما المتسول الفاضل فإنه انتهز هذه الفرصة المواتية، فأخذ يصرخ وهو يلوح بذراعه المشوه وملابسه القذرة:

– إحسان لله يا محسنين!

وعندئذ صاح جيهان مرة أخرى:

– عجبا! وحياة رأسي ما هذا إلا "كلوبان ترويفو" مرحى أيها الصديق! لابد أن هذا الجرح العتيد قد ضاق بالمقام فوق فخذك الأيسر فانتقل إلى ذراعك الأيمن! مبروك أيها الصديق! وخذ هذا نقوطا لمهارتك في قفز الأسوار ونقل الجروح!

ثم قذف إليه بقطعة فضية تلقفها المتسول في براعة النسانيس، ثم بسط يده مرة أخرى صائحا بصوته المنكر:

– إحسان لله يا محسنين!

وعندئذ كان جرنجوار قد أفاق من الصدمة الأولى فأخذ يصيح بالممثلين المسمرين فوق خشبة المسرح أن يستمروا في التمثيل، وهنا أحس بمن يجذبه من مؤخرة سترته، فالتفت في شيء غير يسير من حدة الغضب، ولكنه لم يلبث أن ابتسم حينما اكتشف أن الذراع الذي كان متعلقا بمؤخر سترته كان ذراعا بضا لطيفا، هو ذراع جيزيل، التي سألته:

– هل سيستأنفون التمثيل يا سيدي؟

فأجابها وقد أزعجه سؤالها:

– بطبيعة الحال، وهل من هذا شك؟

– إذن التمس منك أن تتكرم فتفسر لي الرواية.

– الرواية لا تحتاج لتفسيرها إلا أن تنصتي للممثلين.

– عفوك يا سيدي. لست أريد منك أن تفسر لي ما سيقولون، بل ذلك الذي قالوه فعلا، فإني لم أفهم منه شيئا.

فسقط زهو جرنجوار من حالق، وقال في نفسه:

– لعن الله هذه الرقيعة البلهاء!

وابتداء من هذه اللحظة سقطت جيزيل من نظره، أما الممثلون فكانوا قد بدأوا يعملون بمشورته، فرفعوا عقيرتهم بأبيات الشعر الرنانة، وبدأ الناس يتحولون عن السائل البهلوان إلى خشبة المسرح وما يدور فوقها، فسرعان ما ساد الصمت، وعادت إلى جرنجوار سكينة نفسه، وإن كان قد قرر أن ذلك الفصل بين شطري المنظر بهذه الهمجية قد أطاح بالكثير من الجمال الشعري وروعة الأداء الفني.

ولكن لم يكتب لتلك السعادة التي استردها جرنجوار أن تطول كثيرا، فإنه ما كاد الصمت التام يسود القاعة، وقد احتدمت فوق المسرح معركة بيانية على أعنفها بين الشخصية التي تمثل التجارة وتلك التي تمثل النبالة، حتى فتح باب المقصورة الملكية على مصراعيه، وجلجل في الفضاء صوت الحاجب صائحا:

– حضرة صاحب النيافة المولى الجليل الكاردينال دي بوربون!

الكردينال العظيم

يا لحظ جرنجوار المسكين! ما كانت طلقات عشرات المدافع في يوم القديس يوحنا، ولا طلقاتها في قلعة البرج يوم حصار باريس، تلك الطلقات التي أودت كل طلقة منها بحياة سبعة من المقاتلين البرغنديين الأشداء، لتقع على مسمعه وقع تلك الكلمات التي خرجت داوية رنانة من فم الحاجب!

وما كان ذلك لخوف أحسه بيير جرنجوار من الكردينال دي بوربون، أو عن كراهية له، فما كان شاعرنا من الضعف بحيث يخافه، ولا من الجسارة بحيث يكرهه. وإنما هو رجل عياش، كان كل أمله أن يظفر بالتفات رجل عالي المكانة مثل الكردينال دي بوربون إلى آيات البيان التي نظمها في مديح ولي العهد وخطيبته النبيلة. وكان من الثقة بنفسه وبفنه بحيث كان راسخ الاعتقاد أن إصغاء الكاردينال لروايته سيكون كافيا لتقديره إياه فيرتفع شأنه بعد خمول، ويدخل حياة الجاه من أوسع أبوابها.

فلئن اضطرب جرنجوار وسب الكاردينال فما كان ذلك كراهية منه لحضوره، فهو كما رأينا كان يعلق أكبر الآمال على ذلك الحضور، بل لأنه كان يريد أن يحضر منذ البداية، فإن حضوره في هذه اللحظة سيحول أنظار الناس عن التمثيل إلى شخصه الوجيه، ثم يشغل بالتحية، وبذلك

يدخل الخلل على النسق الفني مرة أخرى، كما طرأ في المرة الأولى على يد ذلك الشحاذ الألعبان.

وصدق نظر جرنجوار، فتحققت مخاوفه جميعا: فقد أحدث ذلك الدخول المفاجئ هرجا ومرجا بين النظارة، فتحولت جميع الأبصار عن المسرح إلى المقصورة وتعلقت بصاحب النيافة، وسرت على كل لسان غمغمة الناس:

– الكاردينال، الكاردينال!

فاضطر الممثلون إلى الصمت مرة أخرى، ووقف الكاردينال على عتبة المقصورة وأجال في الحاضرين من العامة نظرة سريعة تفيض بعدم الاكتراث، فزادت الضجة، لأن كل واحد من الحاضرين كان يريد أن يرى الكاردينال رؤية واضحة، فكل كان يتطاول بعنقه فوق كتف جاره، أو يصيح به أن يخفض رأسه.

ولهم في هذا عذر، فقد كان الكاردينال دي بوربون من أوجه الشخصيات في باريس، وكانت مشاهدته أمتع وأوقع لدى العامة من أي فرجة أخرى. فقد كان شارل كاردينال دي بوربون ومطران وكونت مدينة ليون، ومن أمراء كنيسة الغال، يستمد أصله النبيل من عرقين، ويرتبط بوشائج النسب والقرابة إلى أكرم أرومتين في فرنسا. فأخوه بيير أمير بوجو صهر الملك لويس الحادي عشر، وقد تزوج بنت الملك الكبرى. أما أمه آنييس البرغندية فهي من بيت دوق برغانديا العظيم، المعروف باسم شارل

الجسور، والذي كان يعتبر ندا لملك فرنسا نفسه، وطالما قرع بسيفه سيفه وطاوله إلى عرش الغال.

وكان في ذلك النسب العريق ما يفتن العامة ولا مراء. فهو قد جمع الحسنيين بذلك النسب فضمن مؤازرة الحزبين، وأكل على المائدتين، فوصل بفضل ذلك السند المزدوج إلى منصب من أرفع مناصب الكنيسة وبات يرنو بنظره إلى عرش بطرس الرسول في روما يوما ما، وجمع ثروة طائلة مكنته من حياة مترفة باذخة، وطالما أفتتن العامة بمظاهر الترف والبذخ ولاسيما حين يجتمعان لرجل في شرخ الشباب فيه جمال ووسامة وترفع.

وكانت هناك مزية أخرى حببت الكاردينال دي بوربون إلى أهل باريس، فهو محب للحياة، مقبل عليها في مرح واستمتاع، فهو يحب النبيذ الذي يأتيه صرفا من معاصر الكروم الملكية، ولكنه لا يكره أيضا أنبذة العامة من أهل باريس، فكل ما هو مسكر من عصير بنت الحان طيب مقبول. أما لعب الورق فهو فيه من فرسان الميدان. وأما البر والسخاء فقد اشتهر بهما الكاردينال الشاب، وكل ما هناك أنه يتجه ببره وسخاوته اتجاها خاصا، فهو يؤثر بهما الشابات دون العجائز، والحسناوات دون القبيحات، كي يكون البر أجدى وأنفع.. ولأنه ينبغي على العبد الصالح أن يكرم من أكرمهن الله حين قسم الحظوظ والمنن!

وما من شك أن مكانة الكاردينال من قلوب الباريسيين، هي التي عصمته من سوء الاستقبال الذي كانت تنذر به غضبة الناس منذ مدة

وجيزة، حين طال بهم انتظاره كي يبدأ التمثيل. مما يدل على أن شعب باريس هوائي النزعة يهتف اليوم لمن كان ينادي بسقوطه بالأمس، وربما طالب برأسه غدا. يضاف إلى ذلك أن شعب باريس شعب ذواقة لا يهون عليه أن يحاسب كاردينالا على تأخره عن الموعد، إذا كان ذلك الكاردينال شابا جميلا أنيقا يروق الناظرين شكله وهو في مسوحه الأرجوانية.

دخل الكاردينال إذن، فحيا الناس بتلك الابتسامة الموروثة التي يدخرها الكبراء على طرف الشفاه لجماهير الناس، ثم تقدم فجلس في صدر المقصورة على مقعد كبير مكسو بالمخمل الأرجواني، وأحاطت بمقعده بطانته من كبار رجال الدين.

وكان ظهور هذه البطانة موجبا جديدا للاضطراب والهمهمة بين الناس، فأخذ الطلاب يشيرون إليهم واحداً واحدا ويسلقونهم بألسنتهم. وكان أمامهم في ذلك الطالب الماجن جيهان، الذي كان يكره كبار رجال الكنيسة، مع أن شقيقه الكبير أسقف مرموق المكانة.

فمهما يكن من شيء فإن الكاردينال كان يبدو وكأنه نصف إله، فهو شارد النظرات منذ دخوله كأنه لا يحس لهذه الآلاف المؤلفة وجودا حقيقيا، وأكبر الظن أن ضجتهم هذه وضحكاتهم ما كانت تزيد لديه على أن تكون طنينا كطنين أجنحة الذباب.

ولم يكن شرود الكاردينال عن ترفع ارستقراطي فحسب، بل كان هناك سبب خاص مباشر لذلك الهم أو الضجر، ولا يذهبن بك الظن إلى

أن هذا السبب كان أمرا من أمور الدولة الكبرى، أو حادثا جللا من الأحداث التي تهتز لها أركان الكنيسة المقدسة. كلا، فما كان شيء من ذلك كله ليشغل بال الكاردينال النبيل المترف. فإن أردت ملحا أن تعرف سبب ذلك الضجر والقلق، فاعلم أن الرجل المترف لا يكره شيئا كما يكره السأم، ولا يشفق على نفسه من شيء كما يشفق من الملل، وليس يمل الإنسان المترف المرهف مثل معاشرة من لا يشاكلونه. وكان الملك قد فرض على نيافة الكاردينال النبيل أن يقوم عنه وباسمه باستقبال وفد سفراء الفلاندر والاحتفاء بهم، وذلك الوفد هو الذي أحضر العروس الملكية الأميرة مرجريت لتزف إلى ولي العهد. فإذا علمنا أن أعضاء هذا الوفد ممثلو شعب الفلاندر في مجلسه النيابي، علمنا أنهم لم يكونوا سفراء بمعنى الكلمة، ولا نبلاء كما تعرف فرنسا النبلاء، وإنما هم حفنة من التجار والزراع وأصحاب الحرف، لا رقة فيهم ولا نبالة، وليس السائل الذي يجري في عروقهم ذا لون أزرق كذلك السائل الذي يفترض الكاردينال أنه يجري في عروق النبلاء ممن هم على شاكلته.

ولم يكن سوء ظن الكاردينال النبيل بضيوفه السفراء الفلمنكيين رجما بالغيب أو رهنا بالسماع، فقد خبرهم قبل ذلك حين زاروه في قاعة مكتبه، فإذا هم جماعة من الأجلاف جعلوا بسط قصره الأنيقة الفاخرة وكأنها طريق زراعي لكثرة ما تركوا عليها من الأوحال العالقة بأحذيتهم الغليظة.

وهو الآن يروض نفسه على تكرار ذلك العذاب، باستقبال هؤلاء الضيوف في هذه الحفلة وبمؤانستهم في هذه المقصورة، ويسائل نفسه كيف

تراه يظهر احترامهم أمام هؤلاء الألوف من أهل باريس، وهم لا يمتازون عنهم بشيء على الإطلاق، وانتهى تساؤله إلى أن هذه المهمة هي أشق وأدنأ ما طاب لجلالة الملك أن يكلفه به من المهام.

وفي هذه اللحظة جلجل صوت الحاجب من جديد:

– السادة مبعوثو سعادة دوق النمسا!

وقد كان هؤلاء هم أعضاء وفد الفلاندر التي تنسب إلى دوق النمسا في المراسم الرسمية، فهب الكاردينال واقفا، وألصق فوق فمه أعذب ابتساماته الدبلوماسية، ثم استقبل الوفد على باب المقصورة بما يستقبل به الأمراء العظام. وكان عدد أعضاء الوفد ثمانية وأربعين رجلا، وعلى رأسهم رجل طويل القامة عظيم الهامة. وفي مؤخرتهم رجل أطول منه وأضخم تبدو على ملابسه الرثاثة، فحال الحاجب بينه وبين الدخول من باب المقصورة غير مصدق أنه من أعضاء ذلك الوفد. ولكن الرجل لم يغضب، بل دفع الحاجب في بساطة وحزم ثم دخل وهو يصيح بصوت كالرعد لفت أنظار كل من القاعة:

– أما ترى أيها الحمار أنني منهم؟

– عفوك يا سيدي. ما اسمك؟

– جاك كوينول، وصناعتي دباغ جلود.

فحار الحاجب كيف يقدمه بهذه الصناعة الحقيرة، فصاح يعلن مقدمه قائلا:

– السيد جاك كوينول من كبار رجال الدولة في مدينة جنت وعندئذ صرح كوينول بصوت سمعه الناس جميعا:

– كلا. بل كوينول دباغ الجلود!

فسرت بين الناس همهمة إعجاب بجراءته. والواقع أن الرجل كان معروفا في بلاده أنه صديق الشعب، وكان ديموقراطيا بمعنى الكلمة شديد الاعتزاز بشخصيته شديد الكراهة للرسميات ومظاهر الأبهة الارستقراطية.

والجماهير كالحيوانات تدرك بالسليقة من الذي يعطف عليها، فسرعان ما أدرك الباريسيون الموجودون في القاعة الكبرى أن ذلك الرجل منهم وأنه يحبهم.

ولم يكن استقبال هؤلاء السفراء بالتجلة والإكرام هو كل ما كتب للكاردينال تلك الليلة من عذاب، بل كانت هناك في كأس الهوان بقية ينبغي أن يتجرعها حتى الثمالة.

ولعل القارئ لم ينس بعد ذلك السائل الجسور الذي اقتعد سياج المقصورة الملكية، فإن ذلك الرجل لم يزايل مكانه ذاك عندما دخل الكاردينال وحاشيته، بل لم يلق إليهم بالا وظل على تحريك ذراعه المشوه والتلويح بثيابه الممزقة، وهو يكرر بطريقة آلية قوله:

– إحسان لله يا محسنين!

ولعل هذا المتسول– واسمه كما نعلم كلوبان ترويفو– هو الوحيد في هذه القاعة الذي لم يلتفت إلى ما كان بين كوينول والحاجب من مشادة، ولكن اتفق أن اختار كوينول لنفسه مكانا خلف المكان الذي كان ترويفو قد تخيره لنفسه فوق السياج، وشد ما دهش الناس حين رأوا كوينول ينحني في مكانه ويرجع الطرف في ذلك المتسول الجريء، ثم يضع كفه فوق كتفه كما يفعل الأصدقاء، وتنبه كلوبان ترويفو إلى وجود تلك اليد فالتفت وراءه، وظهرت على وجهي الرجلين علائم الدهشة، ثم علائم التعاطف والتعارف، ثم تصافحا باليد تصافح الأنداد، وانهمكا بعد ذلك في حديث خافت، غير مكترثين بالألوف التي في القاعة ولا بالعشرات الذين في المقصورة، وكانت أنظار الجميع هنا وهناك مسلطة عليهما.

وكان هذا المنظر حريا بطرافته أن يثير في الناس الدهشة الشديدة، التي لم تلبث أن تحولت إلى عاصفة من الضحك أمام هذه النكتة العملية، فنظر الكاردينال حيث ينظرون، وكان من قبل مشغولا بالترحيب بضيوفه، فرأى جانبا من ثوب ترويفو المهلهل، فظن أن الرجل تسلق المقصورة كي يستجدي كبار الزوار فثار لهذه الجسارة وصاح:

– يا ناظر القصر، اقذف بهذا المخلوق في النهر!

وعندئذ صاح كوينول بدون أن يتخلى عن يد كلوبان التي كانت في يده:

– ما هذا الذي تقول يا سيدي الكاردينال؟ هذا صديق من أصدقائي.

وسمع الناس في القاعة هذه العبارة، فدوت أكفهم بالتصفيق وتصايحوا من كل صوب هاتفين لكوينول، فقد تربع الرجل بمسلكه هذا فوق عرش قلوبهم. أما الكاردينال فلم يسعه إلا أن يعض شفته حتى كاد يدميها، وهو يصب في سره اللعنات على جلالة الملك.

وغني عن البيان أن صديقنا القديم بيير جرنجوار كان طول هذا الوقت يكاد ينشق من الغيظ، محاولا إنقاذ ما يمكن إنقاذه من مسرحيته، فكان يصرح في الممثلين المسمرين في مكانهم أن يستأنفوا التمثيل، وأن يرفعوا أصواتهم ما وسعهم أن يرفعوها، كي يستلفتوا إليهم الأنظار، ولكن محاولاته ذهبت أدراج الرياح، لأن الأنظار جميعها كانت متعلقة بصاحب النيافة، ثم بأصحاب الجلافة سفراء الفلاندر، وكانت حادثة كوينول والشحاذ ترويفو ثالثة الأثافي.

والواقع أنه كان هناك سبب آخر أيضا لم نكن نحب أن نعترف به إكراما لخاطر صديقنا جرنجوار، وهو أن الجمهور قد بدأ يسأم ذلك الفصل التمهيدي الممل.

وانتهز جرنجوار بعد ذلك فرصة هدوء الناس نسبيا، فمال على أذن جاره وقال له:

– ألا ترى يا سيدي أنه يحسن بنا أن نستأنف؟

– نستأنف ماذا؟

– التمثيلية طبعا.

– كما تحب.

فأول جرنجوار ذلك الرد السلبي المائع بأنه موافقة حماسية، فأخذ يصرخ كأنه يطمع في تزعم مظاهرة:

– التمثيل.. التمثيل!

وكان من سوء حظه أن سمعه جيهان وهو منبطح في مكانه فوق النافذة، فصاح بصوته الجهوري، وسرعان ما صاح معه أصحابه المحيطون به:

– لا تمثيل. لقد سئمنا هؤلاء المهذارين، فمن هذا الحيوان الذي يطالب بالتمثيل؟

ولكن ذلك لم يفت في عضد المؤلف الهمام، فأنشأ يصرخ من جديد، وبذلك ازداد الهرج والمرج بين المعسكرين، فاستلفت ذلك نظر الكاردينال، فسأل ناظر القصر:

– ما هذه الضجة يا حضرة الناظر؟

– هل يسمح مولاي الكاردينال لهؤلاء الأوغاد باستئناف التمثيل؟

– استمروا، استمروا. فالأمر عندي سيان، وسأشغل نفسي ما طالت الرواية بحبات مسبحتي!

وفعلا بدأت الأشخاص المسمرة على المسرح تتحرك وتتكلم، وتنفس جرنجوار الصعداء وعاودته الأحلام في الشهرة والمجد، لأنه لم يكن قد سمع إشارة الكاردينال إلى مسبحته، بيد أن تلك الآمال المتجددة لم يكن نصيبها خيرا من نصيب سابقاتها. ففي أثناء التمثيل، كلما أوشك الاندماج في الجو أن يتم، كانت عصا الحاجب تطرق الأرض بشدة ويصيح معلنا قدوم ضابط في حرس الملك أو مستشار في البرلمان، حتى غدا الأمر ولا طاقة للمسكين باحتماله، وتبددت جميع آماله التي عقدها على نجاح روايته. وكلما تلفت وجد الناس منصرفين عن الإنصات، فيما عدا صاحبتيه المتواضعتين جيزيل ولينيا، فقد كانتا تسألانه على الدوام عن مغزى ما يقوله الممثلون، إلى أن قضى على الرواية بضربة أخيرة وجهها إليها جان كوينول، الذي هم واقفا على قدميه وصاح في الناس بصوت جهوري:

– لست أدري يا أهل باريس ما الذي يعجبكم في هذا التمثيل؟ فلست أرى إلا بضعة أشخاص وكأن كل واحد منهم يهم بالانقضاض على أخيه، فليس في الرواية شيء طريف شائق، والخصام والجدال لا يتعدى طرف اللسان. وقد سلخت هنا نصف ساعة انتظر أن يفضي هذا الجدل الحامي ولو إلى لكمة واحدة، ولكن خاب ظني، فليتهم إذن تركوا الخصام والجدال وأمتعوا أنظارنا برقصة جميلة أو شنفوا آذاننا بغناء مستطاب،

ونحن في بلادنا الفلانذر نحتفل في هذا اليوم بما هو أحسن، فننتخب أمير البلهاء. وطريقة الانتخاب ديموقراطية قائمة على تكافؤ الفرص فيشترك جميع الحاضرين في الاقتراع. وطريقة ذلك غاية في السهولة: إذ نضع في فتحة أحد الأبواب... ولكن ألا يحسن أولا أن أسألكم هل تفضلون انتخاب الأمير أم الإنصات لثرثرة هؤلاء المهذارين؟

فصاح كل من في القاعة:

– فلتسقط الرواية. الموت للممثلين. ليحيا أمير البلهاء!

– إذن أشرح لكم طريقتنا في انتخاب الأمير: نضع لوحة مثقوبة في فتحة أحد الأبواب، بحيث يتسع الثقب لمرور رأس إنسان. وكل من آنس في نفسه الكفاءة لمنصب أمير البلهاء يطل برأسه من الفتحة، فمن وجدناه أبشع المرشحين خلقة انتخبه الحاضرون بأغلبية الأصوات، ثم طفنا به محمولا على الأكتاف في شوارع المدينة، ونصبنا له في الليل مهرجانا على ضوء المشاعل. فما قولكم أيها السادة؟

وهم جرنجوار أن يعترض معلنا استنكاره الشديد لهذه الإهانة الهمجية لعرائس الشعر والفن الرفيع، ولكنه خشي العاقبة أمام هتاف الموافقة والاستحسان الذي قوبل به اقتراح كوينول من جميع الموجودين في القاعة، فلوى ضلوعه على جمر الغضب والقهر، ولاذ بالصمت الممض.

أمير البلهاء

وفي أسرع من رجع الصدى كان الجميع قد أعدوا لانتخاب الأمير عدته على الوجه الذي يبينه لهم كوينول. واشترك التجار والطلاب والسوقة بأيديهم في التنفيذ. وقد وقع الاختيار على المحراب الصغير المواجه للمائدة الرخامية الكبيرة، كي يكون مسرحا للمباراة، ذلك أن هذا المحراب يتألف من حجرة صغيرة لها نافذة صغيرة مستديرة من زجاج وردي اللون فحطموا ذلك الزجاج، وتقرر أن يدخل ذلك المحراب من الخلف كل من يرشح نفسه للقب أمير البلهاء، فيطل برأسه من هذه الكوة، ومن اجتمع على اختياره رأي الحاضرين كان هو الأمير. وبذلك بدأت أكبر مباراة في الدمامة وبشاعة الخلقة.

ولم تلبث حجرة المحراب أن اكتظت بالمتبارين ثم أغلق من دونهم الباب وبقى كوينول في الشرفة الملكية يصدر الأوامر وينظم المباراة. أما الكاردينال فكان ثاني اثنين لم ترقهما هذه الصهبة، أولهما صاحبنا جرنجوار. وقد تعلل الكاردينال لضيوفه الفلمنكيين ببعض المشاغل، وباقتراب موعد صلاة العشاء، فانسحب مع بطانته من رجال الكهنوت. ولكن شتان خروجه ودخوله: فلئن أثار دخوله اهتماما بالغا في صفوف الناس، فإن خروجه لم يحرك من أحد ساكنا ولم يستلفت نظرا. وذلك دليل جديد على أن الجماهير لا تعرف الوفاء ولا تعرف الثبات، فهي كل ساعة في شأن، فمنذ ساعة كانت قبلة أنظارها طلعة الكاردينال ومن حف به من أكابر

الرجال، أما الآن فقبلة الأنظار نافذة محطمة تطل منها سحن نكراء تستبق أيها أبشع منظرا!.

وبدأت المباراة فكان أول وجه أطل على الناس له شفتان كأنهما فم ثور، وعينان مقلوبتان حمراوان، وجبين مجعد كأنه جلد حذاء بعد عهده بالتلميع، فضج النظارة بالهتاف والتصفيق.

وأطل وجه ثان وثالث ورابع، وهكذا دواليك. فكان كل وجه من هذه الوجوه يقابل بضجة الهتاف والصفير والدق بالأقدام والنكات اللاذعة.

وأما جرنجوار فقد تحمل الصدمة بشجاعة، ثم عن له بعد ذلك وهو يتمشى أمام خشبة المسرح أن يمضي إلى المحراب، ويطل برأسه على الناس فيخرج لهم لسانه، ولكنه لم يلبث أن تجلد وكظم غيظه قائلا:

– أن هذا لا يليق بنا فالانتقام عمل وضيع، ويحسن بنا أن نكافح، واعتقادي أن سلطان الشعر على الناس عظيم، فلأجرب استمالتهم، وسنرى هل يكتب الفوز في النهاية لقلائد بياني أم لهذه الوجوه التي مسخها الله.

وفي هذه اللحظة تعالت الأصوات من كل مكان:

– مرحى مرحى! المجد لله في الأعالي! هذا أمير البلهاء ولا مراء! فليحيا الأمير.

فنظر جونجوار إلى النافذة المحطمة نظرة أورثته ألف حسرة، وعذر الناس في إعجابهم الجنوني الذي اشتركوا فيه جميعا، بغير استثناء كوينول والمتسول كلوبان ترويفو.

واندفعت الجماهير نحو القاعة، لتبارك أو لتتبرك بالأمير الجديد، وهم يحسبون أن ذلك الوجه قد قلبه صاحبه قلبا مصطنعا، فما كانت أشد دهشتهم حينما تبينوا أنه بشع بشاعة فطرية، فازدادت حماستهم، وكأنهم عثروا على كنز فريد.

كان وجه هذا المخلوق لا يشبه غيره من وجوه البشر، فقد انطمست إحدى عينيه، وتألقت العين الأخرى تحت حاجب أحمر اللون كث الشعر. وكان رأسه غاية في الضخامة، يعلوه شعر أحمر مشعث. وبين كتفيه حدبة كبيرة. وأما أنفه فكان صغيرا لا يكاد يبين. ومن تحته فم كبير بشع كأنه حدوة الحصان، وقد برزت منه أسنان معوجة نافرة منها ما يشبه ناب الفيل ضخامة وبروزا. وأما هيكل جسمه فكان لا يقل عن ذلك غرابة، فساقاه متباعدان لا سبيل إلى التقائهما إلا عند الركبتين. وذراعاه آية في الضخامة والقوة. فهو أشبه شيء بمارد من مردة الأساطير في ضخامته وقوة بنيته، ولكنه يختلف عنها بانعدام التناسق بين أعضائه.

وما كاد الناس يخرجون بهذا المسخ من المحراب، حتى عرفه أكثر الحاضرين، وتصايحوا من كل صوب قائلين:

– هذا كازيمودو. هذا هو قارِع الأجراس. هذا هو أحدب نوتردام. هذا هو الأعرج.

نعم فقد كان كازيمودو يجمع إلى صفاته السالفة الذكر مزية العرج.

وعندئذ صاح طالب ماجن:

– أيتها النسوة الحبالى جميعا، تنحين عن الطريق!

فارتفعت عاصفة من الضحك، وصاح جيهان:

– والنسوة المتشوقات للحمل أيضاً، فليحذرن!

والواقع أن جميع النساء كن قد أخفين وجوههن في طيات ملابسهن أو بين أيديهن غير منتظرات هذه الدعوة الساخرة، وصاحت إحداهن:

– يا له من نسناس دميم!

فقالت أخرى:

– إن قبحه لا يقل عن شرهه وسوء نيته.

فقالت ثالثة:

– أنه إبليس بلحمه ودمه.

وقالت رابعة:

– صدقت، فمن سوء طالعي أن أسكن قريبا من كنيسة نوتردام، وفي جوف الليل أسمعه وهو يبرطع بحوافره الشيطانية فوق سقف الكنيسة.

– وا مصيبتاه! هل يعيش في الليل فوق السطح مع القطط السوداء؟

– طبعا. ولا شك أيضا أنه يجتمع بإخوانه العفاريت.

– لا شك. وهو يركب مسافرا إليهم مقبض مكنسته.

– وأنا أيضا جارة من جارات كنيسة نوتردام. وكثيرا ما أسمعه في الليل طائرا فوق البيوت، يلقى من فوهات المداخن بالتعاويذ النجسة.

– يا للأحدب الدميم!

وإذا كانت النساء قد فزعن من كازيمودو ذلك الفزع، فإن الرجال على العكس من ذلك، كانوا أشد ما يمكن سرورا ومرحا وحماسة.

أما كازيمودو نفسه، قبلة تلك الأنظار وموضوع هذه الضجة كلها، فوقف في فرجة باب المحراب وقفة هادئة رزينة، وقد ترك نفسه على سجيتها، كي يشبع الجماهير إعجابا به كما يشتهون فتقدم منه طالب من جماعة الطلاب المجان، وانفجر ضاحكا في وجهه بغتة، على مقربة شديدة منه، فلم ينطق كازيمودو بكلمة، ولكنه أمسك بالطالب الشاب من خاصرته ورفعه بيد واحدة ثم قذف به فوقع على بعد عشرين خطوة على رؤوس الناس!

وأدهشت هذه القوة كوينول، فاتجه صوبه وصاح به:

– أنك أجمل إنسان دميم الخلقة فيمن رأيت طوال حياتي!

ثم ضربه على كتفه في سرور واغتباط، فلم يتململ كازيمودو، فاستطرد كوينول:

– كان يسرني جدا أن أتعشى معك لولا أن هذه مسألة يبدو أنها تكلفني أكثر من عشرة ريالات. فما رأيك في هذا أيها البطل؟

فلم يجبه كازيمودو بشيء، فصاح دباغ الجلود:

– ماذا أيضا بحق السماء؟ هل أنت أصم أيضاً؟

وكان كازيمودو في الحقيقة أصم.

بيد أن كازيمودو ضاق آخر الأمر ذرعا بإشارات كوينول، ويبدو أنه أساء فهمها، فتحول إليه بغتة وهو يصرف بأسنانه، فتراجع العملاق الفلمنكي كما يتراجع الكلب أمام قط متحفز. وتراجع من ورائه الناس حتى صارت الحلقة الفارغة التي يتوسطها كازيمودو قطرها أكثر من خمس عشرة خطوة، وعندئذ تطوعت امرأة عجوز فأكدت لكوينول أنه أصم، فصاح كوينول عندئذ وهو يطلق ضحكة مدوية:

– أصم؟ تبارك الله! هو إذن أمير البلهاء ولا مراء.

وكان جيهان قد هبط أخيرا من فوق النافذة التي لزمها من أول النهار، فاقترب من مركز الدائرة وهو يقول:

– إني أعرفه، فهو قارع النواقيس لدى أخي الأسقف، طاب يومك يا كازيمودو.

وكان الطالب الذي قذف به كازيمودو لا يزال يتحسس أضلاعه، فعلق على ذلك بقوله:

– تباً له ولأخيك يا جيهان، فإنه والله إبليس صور إنساناً. وفيه قوة سبعة عمالقة مع أنه أحدب، ويجري بسرعة مع أنه مقوس الساقين أعرج، ويرمقك بنظرة حادة، مع أنه أعور، ويصغى إلى كلامك، مع أنه أصم، ثم من يدري أهو أخرس أم لا؟

فقالت العجوز:

– بل أنه يتكلم، ولكن حينما يشتهي الكلام. ولم يولد أصم ولكنه فقد سمعه من إدمان قرع النواقيس، أما الخرس فهو مبرأ منه.

فقال جيهان:

– لا ينقصه إلا هذه الآفة كي يكون تام الصفات.

وفي هذه الأثناء كان فريق من الرعاع والخدم والنشالين والطلاب قد انطلقوا ليفتشوا عن ثوب كهنوتي مزركش وطيلسان للأمير الجديد.

وسرعان ما عادوا، فتركهم كازيمودو يلبسونه هذه البزة وهو ساكت مقطب الجبين، ثم أجلسوه في رفق فوق محفة، فجلس تحف به المهابة والوقار. والواقع أن كبرياءه الصامتة كانت تضفي عليه وقارا حقيقيا. وتولى حمل المحفة أثنا عشر رجلا هم ياوران أمير البلهاء. فانتشرت على وجه المخلوق الدميم أمارات تجمع بين السرور والازدراء، وقد وجد نفسه أرفع مقاما من جميع الناس من حوله.

وهكذا خرج موكب أمير البلهاء من قصر العدل وبدأ طوافه في شوارع المدينة.

كان جرنجوار طيلة ذلك المنظر الذي أعقب انتخاب كازيمودو أميرا للبلهاء صامدا للعاصفة، بحث الممثلين على الاستمرار في التمثيل برغم كل تلك الضجة، غير يائس يأسا تاما من رجوعهم إليه هاجرين ذلك اللهو المبتذل. فلما خرج موكب كازيمودو وعلى رأسه كوينول، وتبعه كل من كان في القاعة، تنفس جرنجوار الصعداء وقال يهنئ نفسه:

– الحمد لله، لقد خرج جميع المقاطعين أخيرا !

ولكن لسوء حظه كان جميع المقاطعين هم أنفسهم جميع المشاهدين، وفي طرفة عين ألفي القاعة الكبرى في قصر العدل تكاد تكون خاوية إلا من عدد قليل من الحاضرين متناثرين هنا وهناك، مستندين إلى الأعمدة. كلهم من الشيوخ والعجائز والأطفال الذين أتعبهم التهريج فقعدوا عن متابعة الموكب. كذلك بقى عدد من الطلاب أمام النوافذ يتفرجون على موكب كازيمودو وهو يخترق الساحة. وإلى هؤلاء أشار جريجوار محدثا نفسه.

– لقد بقى نفر من الناس لمشاهدة ختام مسرحيتي. وهم قلة، ولكنهم نخبة من صفوة القوم، وهم خير من كثرة جاهلة.

ولكنه لم يلبث أن تلقى صدمة قوية، عندما حان بعد دقائق أن تعزف قطعة موسيقية لها أهمية خاصة في الرواية لمناسبة وصول السيدة العذراء، ولكن لم تعزف هذه القطعة. ولما تحرى جرنجوار الأسباب اتضح له أن فرقته الموسيقية قد خرجت لتعزف ألحانها الشجية تحية لموكب أمير البلهاء. فأشار على الممثلين أن يضربوا صفحا عن هذه القطعة. واقترب من مجموعة من المشاهدين القلائل. خيل إليه أنهم يتحدثون فيما بينهم معلقين. على الرواية فأراد أن يتسمع تلك الآراء فسمع الحوار الطريف التالي:

– أتعرف يا سيد شنيتو قصر بافار الذي كان مملوكا للدوق نيمو؟..

– طبعا، فهو مواجه لكنيسة براك.

– إذن فاعلم أن الحكومة قد أجرته بستة جنيهات في السنة.

– يا للمصيبة! إن إيجارات المساكن ترتفع ارتفاعا فاحشا

فهز جرنجوار رأسه ثم قال:

– كذا كذا. ولكن لا بأس، فالآخرون يسمعون.

وفي هذه اللحظة صاح أحد الطلاب المطلين من النافذة في آخر القاعة:

– أيها الرفاق! أزميرالدا! أزميرالدا في الميدان.

فكان لهذه الكلمة وقع سحري وأسرع كل من كان موجودا في القاعة نحو النوافذ، ومنهم من تسلق الجدران لينظروا، ثم تصايحوا:

– أزميرالدا! أزميرالدا!

وفي الوقت نفسه ارتفعت من الميدان عاصفة من التصفيق، وتساءل جرنجوار وهو يضرب كفا بكف في يأس شديد:

– ما معنى أزميرالدا؟ يا إلهي!

والتفت نحو المسرح فوجد التمثيل معطلا. فقد كانت هذه هي اللحظة التي ينبغي أن يدخل فيها جوبيتير حاملا صواعقه. ولكنه رأى جوبيتير واقفا في القاعة أمام المسرح ولا يريد أن يتحرك فصاح مغضبا:

– يا ميشيل جيبورن! ماذا تصنع هنا؟ أليس هذا دورك؟ اصعد إذن.

– وا أسفاه! لقد استولى أحد الطلبة على سلم المسرح وانصرف به فنظر جرنجوار وتبين له صدق ما قال جوبيتير. وبذلك صارت المواصلات كلها بين القاعة والمسرح مقطوعة، فصاح:

– يا للمصيبة! ولماذا أخذ هذا السلم؟

– ليتسلقه ويتفرج من النافذة على أزميرالدا.

فكانت هذه هي القشة التي قصمت ظهر البعير، أو الضربة القاضية كما يقولون في الملاكمة، فودع آماله كلها في إتمام الرواية، وغادر القاعة

منسحبا، فكان بهذا آخر من ترك الميدان، مثله في ذلك كالقائد الذي أدى واجبه حتى النهاية.

* *

ولما كان الليل يهبط في ساعة مبكرة في شهر يناير، فقد كانت شوارع باريس معتمة حينما غادر جرنجوار قصر العدل، فسره ذلك، لأنه كان يطمع في الوصول إلى حارة مظلمة منعزلة يسعه أن يخلو فيها إلى نفسه ليفكر في حاله، لعل الفيلسوف فيه يتمكن من تضميد الجراح التي منى بها الشاعر. ولكن كان على الفلسفة أن تواجه مهمة أصعب من تضميد الجراح الشاعرية المعذبة، فإنه لم يكن يدري أين يجد مكانا يبيت فيه ليلته هذه. فبعد ذلك الإجهاض الذي منيت به مسرحيته، لم يكن يجسر على العودة إلى المكان الذي يقطنه من قبل قبالة ميناء التين، فقد كان كل أمله في سداد الأجر المتأخر معلقا بحصوله هذه الليلة على مكافأة سنية.

وبعد أن جلس في مكان ما يقلب وجوه الموضوع، اتضح له أن المسألة ليست من السوء بحيث يظن، فإن جميع أرصفة شوارع باريس ما زالت رهن تصرفه في أي وقت يشاء، وتذكر في الحال أنه كان قد رأى منذ أسبوع عتبة بيت رخامية، كانت قد لفتت نظره لنظافتها وبعدها عن تيارات الهواء، وهي واقعة أمام منزل مستشار في برلمان باريس. فخطر له أنها كأنما قد صنعت خصيصا لتصلح ملاذا لمتسول أو لشاعر وشكر العناية على أنها أخطرت على باله هذه الفكرة الموفقة.

ولكن فيما كان يجتاز ساحة القصر كي يخترق متاهات شوارع باريس، بصر بموكب أمير البلهاء وقد تضخم وزادت ضجته، وحمل أكثر من فيه المشاعل، وفي مقدمة الجميع فرقته الموسيقية، فأثارت هذه الزفة شجونه، فولى منها فرارا.

وبعد أن هام على وجهه مدة، وجد نفسه بجوار سور الحدائق الملكية، في حي غير مرصوف فغاص قدماه في الطين، وتخلص بعد جهد جهيد من هذه الحارة ليصل إلى شاطئ الرين أمام جزيرة صغيرة بدت لعينيه كأنها كتلة سوداء عائمة على صفحة النهر البيضاء، وتمنى لو كان الآن في تلك الجزيرة بعيدا عن ضجة باريس، وخطر له بعد ذلك أن يلقي بنفسه في النهر فينتحر غرقا، ولكنه لم يلبث أن قال:

– ما كان أشد سروري بذلك لولا أنني أكره الماء البارد!

وخطرت له فكرة بدت أقسى وأسوأ من الانتحار، فعزم على تنفيذها انتقاما من نفسه، وهي التوجه إلى قلب باريس والاندماج في المواكب الصاخبة. ثم علل نفسه قائلا:

– فلأذهب إلى ساحة الاعتصاب، فإنهم قد أشعلوا هناك محرقة كبيرة، وإذا فاتني الطعام فسوف لا تفوتني التدفئة.

موكب الأحدب

ساحة الاعتصاب، وما أدراك ما ساحة الاعتصاب: ميدان مترامي الآفاق، ليس في شكله تناسق أو انتظام، أحد أضلاعه رصيف نهر السين، أما الأضلاع الثلاثة الأخرى فبيوت متلاصقة قميئة تبعث في النفس الكآبة والوجوم، كلها مبنى بالحجر أو بالخشب. فلو كنت من هواة الآثار وفنون المعمار، لشاقك ولا ريب أن تتجول في هذه الساحة في ضوء النهار، كي تستمتع بتباين طراز هذه الأبنية التي تمثل نماذج أبنية البيوت السكنية في القرون الوسطى، فيما بين القرن الحادي عشر والقرن الخامس عشر.

وفي منتصف الضلع الشرقي من ساحة الاعتصاب تقوم كتلة ضخمة من الأبنية يظهر فيها التنافر والتباين لأول وهلة، لأنها في حقيقة الأمر مكونة من ثلاثة أبنية كبيرة متلاصقة تعرف بثلاثة أسماء مشهورة وعاها التاريخ: فبناء فيها يعرف باسم بيت ولي العهد، والبناء الآخر يعرف باسم بيت الأعمدة، نسبة إلى تلك الأعمدة الضخمة التي ترتفع فوقها طوابق البناء الثلاثة، والبناء الثالث هو دار المدينة، أي دار البلدية وغرفة التجارة، ففي هذا المكان المثلث الأصل تجتمع لباريس أكرم الأغراض، ففي بيت ولي العهد القديم بيعة للصلاة ومحكمة للقضاء، وقاعة اجتماع

لكبار التجار ووجهاء المدينة، ومخزن حافل بالسلاح للدفاع عنها حين يقتضي الأمر دفاعا.

إلى هذه الساحة إذن وجه بيير جرنجوار خطاه. ولكن الوقت لم يكن كما نعلم في رائعة النهار وإنما كان ليلا، وكان ليلا قرا، وفضلا عن هذا كان شاعرنا يرتجف لا لشدة البرد فحسب، بل لأنه كان مبتل الثياب من قمة الرأس إلى أخمص القدم.

وما كان الجو ماطرا حتى يبتل من دون الخلق في هذه المدينة، فمن أين جاءه ذلك البلل الذي أكمل عليه شقوته وأتم بليته؟

أن شاعرنا سلك في ذهابه إلى ساحة الاعتصاب طريق قنطرة الطواحين، كي يتجنب زحام الناس في موكب الأحدب، حنقا منه وحقدا على هؤلاء الرعاع الذين أفسدوا عليه شاعريته وأضاعوا عليه فرصة المجد الأدبي، وبددوا ما عقده من أمل في الغنى واليسار منذ ليلته هذه، فإذا هو شريد طريد، خاوي الوفاض بادي الأنقاض، لا يملك شروى نقير، ولا يجد مأوى يلوذ به في ذلك الليل الزمهرير، يثقله الدين، وليس له من الحياة الدنيا إلا ما يستر جسده من قميص رقيق، وحذاء عتيق، وإلا ما يحملان في طياتهما من ذلك الماء اللعين. ففي أثناء مروره فوق تلك القنطرة، كانت الطواحين التي تدار بتيار الماء في مجرى النهر، تقذف المياه إلى مسافات بعيدة، فأغرقه الرشاش، فراح يسب أهل باريس الذين أفسدوا عليه لقمته، وبددوا نشوته، ثم ها هم الآن كي يعدوا لقمته من دقيق هذه الطواحين قد أغرقوه، فهو جائع مقرور.

فلا عجب إذن أن يرى من حقه أن يلتمس من الجاني تعويض ما جناه، وأن يتجه إلى ساحة الاعتصاب ليلتمس في نار أهل باريس الموقدة في تلك الساحة دفئا من قشعريرة، ولعله أن يجد في مأدبة تلك الليلة المبذولة للجماهير ما يسد به الرمق ويقيم الأود، ولو ليلته هذه ريثما يتنفس الصبح، ولعله يحمل إليه في أطوائه فرجا.

حث جرنجوار الخطى إذن إلى تلك الساحة، وأخذ بصره على البعد وهج تلك النار المشتعلة في وسط الميدان، فلما اقترب يحدوه الأمل إذا به يجد بينه وبين ذلك المصطلي سدا حائلا، لا من الحجر، بل من أجسام البشر، فقال محدثا نفسه– وقد كانت في شاعرنا تلك النزعة إلى مخاطبة نفسه بما يعتلج في صدره، لأنه كان يخال الشعراء الحقيقيين يجرون على هذه السبنة:

– لعنكم الله يا أهل باريس! أتضنون علي حتى بهذا الدفء اليسير، بعد الذي أصبتموني به من أذى ومنعتموني عنه من خير ومجد؟

وهم أن ينصرف، بيد أنه رأى الناس ثابتين في مكانهم في شبه حلقة، وأنهم لا يتحركون ولا يتكلمون ولا يتزاحمون، وإنما هم قد شخصت أبصارهم إلى شيء بعينه كالمسحورين. ولفت نظره أن الدائرة أوسع بكثير من أن تسمح بالاصطلاء، فثار فضوله واقترب من ذلك الجمع الحاشد، فإذا الناس لم يتجمعوا ذلك الجمع الكبير للذة النار وحدها ولجمال ألسنة اللهب المتراقصة، بل لجمال رقص من نوع آخر لا تعرفه النيران وإن كان له كفعل النار في عروق هؤلاء المشاهدين: ففي وسط تلك الحلقة، في

متسع من الأرض أخلى بين النار وجموع الناس، كانت فتاة صغيرة السن ترقص على ضوئها.

ولم يدر جونجوار لأول وهلة أأنسية هي أم جنية، أم عروس من عرائس الحور، أو ملك من ملائكة الرحمن. فإن جونجوار- كما علمنا- شاعر وفيلسوف شكوكي، ما كان ليقطع في مثل هذا الموضوع- وهو ما هو من الخطر- برأي سريع، فوقف ينظر ويتأمل عسى أن يستبين ويستوثق.

ولم تكن الفتاة طويلة القامة، بيد أن مرونة أعضائها ورشاقة حركاتها وانسياب قامتها جعلتها تبدو في عين الرائي بينة الطول، وكانت تبدو في ضوء النار سمراء اللون، ولكن كان واضحا جدا أن هذه البشرة الغضة تكتسب في ضوء النار ذلك اللون الذهبي الذي تتميز به نساء الأندلس الفاتنات، ولم تكن بشرتها فقط هي السمة الأندلسية فيها، وإنما قدماها الصغيرتان أيضا كانتا أندلسيين، فمن أين لها، وإن لم تكن من بلاد الأندلس، تلك الرقة والدقة وخفة الحركة؟

وكانت الفتاة ترقص وتدور، فكأنها دوامة لا يستقر لها قرار، فوق بساط عجمي فرش على الأرض تحت قدميها. وكلما واجهتك في دورانها المتصل طالعتك عيناها الواسعتان السوداوان المتوهجتان، فيكاد تألقهما أن يطغى على لهب النيران.

ومن حولها وقف الألوف مسمرين في مكانهم، وقد شخصت إليها أبصارهم، وفغرت أفواههم، وكأنهم يهمون أن يلتهموا هذه الحورية وهي تصول وتجول وقد رفعت فوق رأسها ذراعيها البضين، وبرز من تحتهما صدرها الناهد في غلالتها الرقيقة، وثوبها الهفهاف ينحسر ثم يمتد، ويرتفع ثم يهبط، مع وقع ذلك الطبل الصغير، وأيضا مع وقع القلوب الخافقة التي تصاحب حركاتها في توسل وإعجاب وعبادة.

فقال جرنجوار لنفسه:

– ويح نفسي! هذه حورية، أو لعلها الآلهة من الآهات الإغريق! وفي هذه اللحظة ثارت ضفيرة من جدائل الراقصة فاحمة السواد، فانتثرت عل وجهها، وسقطت منها على الأرض قطعة صغيرة من النحاس، فثاب إلى نفسه قائلا:

– واها لي! إن هي إلا غجرية!

وتناولت الفتاة بعد ذلك من فوق الأرض سيفين ثبتتهما فوق جبينها، وجعلت تدور، بحيث يدور السيفان في عكس اتجاهها، فثبت لديه أنها من بنات الغجر، ولكن جمالها كان من السطوة بحيث غسل عنه ما شعر به من خيبة عندما صح لديه أنها ليست من بنات الحور أو آلهة الأساطير.

وكان بين تلك الألوف التي وقفت تشبع أعينها المنهومة من هذه المأدبة الحافلة من مآدب الجمال، وتتراقص فوق وجوههم ألسنة تلك النار

العظيمة، وجه واحد زاد عليها جميعا في الاستغراق والاهتمام لكل حركة أو سكنة تقوم بها هذه الراقصة الحسناء. وكان هذا الوجه وجه رجل في نحو الخامسة والثلاثين، صارم الملامح هادئ الأسارير، فيه وجوم ملازم. وكانت ثياب هذا الرجل تحجبها الجماهير المزدحمة حوله. ولكن الظاهر من أمره كان يدل على أنه قد شاب قبل أوانه، وأصابه الصلع، وكست جبينه الغضون، ولكن كانت عيناه تشعان ببريق ثاقب ينم عن شباب متوقد. وكانت هاتان العينان المتألقتان معلقتين بتلك الكاعب التي لم تجاوز عامها السادس عشر. وكان في الحين بعد الحين يهم بالابتسام رضى وانشراحا، فتحزنه كآبته وتبدو ابتسامته كالحة كأنها التأوه الوجيع.

ولما شبعت الفتاة رقصا، وإن لم يشبع الناس، وأدركها التعب حتى لهثت أنفاسها، كفت، وصفق الناس لها تصفيقا شديدا، وعندئذ صاحت الغجرية الحسناء:

– جالي!

فرأى جرنجوار عندئذ عنزة صغيرة، رشيقة الحركة، فياضة الحيوية مذهبة القرنين والأظلاف، وحول رقبتها قلادة مذهبة، تقفز من حيث كانت جاثمة على طرف البساط، فتمثل أمام الغجرية، وترنو ببصرها إليها كمن يقول: "لبيك سيدتي"، فقالت:

– لقد حل دورك يا جالي.

ثم بسطت يدها إلى العنزة بطبلتها الصغيرة وسألتها:

– في أي شهر من شهور السنة نحن يا جالي؟

فرفعت العنزة قائمتها الأمامية وطرقت الطبلة بها طرقة واحدة، لأن الشهر كان حقيقة هو شهر يناير، أول شهور السنة، فصفق الناس، وعادت الغجرية إلى سؤالها:

– وفي أي يوم نحن من ذلك الشهر؟

فرفعت جالي ظلفها المذهب ودقت الطبلة به ست دقات، فقد كان ذلك اليوم هو السادس من شهر يناير، فصفق الناس مرة أخرى وسألتها بعد ذلك:

– وكم الساعة الآن؟

فدقت جالي الطبلة سبع دقات، وعندئذ دوت في فضاء الساحة دقات ساعة بيت الأعمدة المطلة على الميدان سبع دقات، فاستولى على الناس العجب. وغمغم ذلك الرجل الأصلع المتجهم قائلا:

– أن وراء هذا لسحرا ولا ريب..!

وسمعته الفتاة فارتجفت، ولكن عاصفة التصفيق لم تلبث أن غطت على هذه الملاحظة الفظة، فمسحتها من ذهنها، واستأنفت سؤال عنزتها:

– أتعرفين كيف يسير الكابتن جيشار قائد الحرس في مقدمة جنوده؟

فنهضت جالي على قائمتيها الخلفيتين، وأنشأت تتبختر في مشيها بكل وقار وخيلاء، مقلدة ذلك الضابط المشهور، فضج الناس بالضحك والتصفيق. ولما هدأت عاصفة الضحك، سألتها:

– والآن يا جالي، نحب أن ترينا كيف يتكلم السيد جاك شارمولي النائب العمومي حين يترافع أمام المحكمة الكهنوتية..

فأقعت العنزة عندئذ على عجيزتها، ورفعت قائمتيها الأماميتين في الهواء، ثم راحت تثغو ثغاء منغما، وتهز قائمتيها هزات عصبية. فلو أنها كانت تتكلم الفرنسية الركيكة أو اللاتينية الأكثر ركاكة، لخالها الناس النائب العمومي بلحمه ودمه، فقد كانت تقلد حركاته ونبرة صوته تقليدا بارعا، فضج الناس بالضحك والتصفيق ما استطاعوا، وصاح الأصلع:

– كفر، الحاد، سحر!

فالتفتت الفتاة ناحيته، فلما رأته زمت شفتيها احتقارا ولم تعره اهتماما، ثم بسطت يدها بالدف كي تتلقى فيه التبرعات، التي انهالت عليها فكانت كومة غريبة من أنواع النقد بين كبيرة وصغيرة ونحاسية وفضية. حتى إذا وصلت في طوافها إلى حيث وقف جرنجوار، مد يديه بحركة لا إرادية إلى سائر جيوبه ففتشها وقلبها، فلم يعثر فيها بالطبع على شيء. والفتاة واقفة ترنو إليه بمقلتيها الواسعتين الساحرتين الوطفاوين، والدف مبسوط في يدها، فشعر جرنجوار بحرارة الدفء لأول مرة في تلك الليلة المقرورة وقد تصبب جسمه عرقا، ولو أنه كان قد عثر في قاع جيبه

الخالي على كنوز الهند ومناجم بيرو، إذن لأغدقها على الفتاة ولم يستكثرها، ولكن كنوز الهند ومناجم بيرو لم تكن في قاع جيبه.

ولم يدر كيف ينجو من هذه الورطة، بيد أن السماء كتبت له النجاة منها على نحو غريب، فقد شاءت المصادفة المحضة أن يسمع الناس في تلك اللحظة صوتا ثاقبا كأنه بومة تنعب في جوف الليل.

– أما آن لك أن تنصرفي أيتها الغجرية الآثمة؟

فتلفتت الفتاة متوجسة مذعورة، فإذا الصوت صادر من كوة قريبة في بناء عتيق يعرفه الباريسيون باسم برج رولان، فصاح بعض الواقفين:

– أنها الأخت جيدول الناسكة.

– وماذا تريد هذه المنكودة؟

– ألم يقدموا إليها عشاءها؟

ووجد جرنجوار في هذا الاضطراب فرصته، فاندس بين الناس واختفي عن الأنظار وقد ذكره لفظ العشاء بخواء بطنه، فأسرع إلى المأدبة المبذولة على قارعة الميدان، ولكنه حين وصل إليها وجد الأيدي قد سبقته والأفواه، فلم يتيسر له من ذلك شيء، فانصرف ضاويا خاوي البطن حسيرا، لولا أن أخرجه من كآبته وحسرته صوت ملائكي كأنه شدو البلابل في الليلة القمراء. فإن الحسناء حين انتهت من جمع النقود شكرت الناس بابتسامة عذبة ثم بدأت تترنم بأغنية أسبانية، فوقف ينصت لغنائها

بحواسه جميعا، فإذا صوتها كحسنها ورقصها ساحرا أخاذا، لا تحيط بوصفه الكلمات، ونسى وهو يصغى جوعه وحرمانه. فقد كان مأخوذا مسحورا. ولئن لم يفهم من ألفاظ الأغنية ومعانيها شيئا، إلا أنه استجاب لها بإحساساته كلها، حتى لقد أغرورقت عيناه بالدموع.

وأن المتفرجين لفي مثل ما كان فيه من استغراق ونشوة، وقد سكنوا فلا تكاد تسمع لأنفاسهم حسا، وإذا بالصوت الناعب يشق ذلك السكون مرة أخرى:

– أولا تريدين أن تخرسي يا سليلة الأبالسة؟

فتصايح الناس عندما رأوا مغنيتهم تكف عن الشدو:

– قبحك الله يا عجوز النحس، ونغصك كما نغصتنا.

– لماذا لا يتخطف الأبالسة هذه الرعناء المنكودة؟

ووضع جرنجوار أصابعه في أذنيه لكي لا يبدد ضجيج السوقة ونعيب الناسكة العجوز حلم نشوته اللذيذ، ولكن كان مكتوبا عليه أن يبتلى بضجة أكبر من هذه الضجة، فنظر إلى مصدرها ليرى عدوه القديم مقبلا.

وما كان ذلك العدو إلا أمير البلهاء، الأعور الأحدب الأعرج كازيمودو، في موكبه الحافل وقد تضخم بمروره في طرقات المدينة بما انضم إليه من ألوف بعد ألوف من الغوغاء والمتشردين واللصوص ومن إليهم من حثالة الباريسيين. وكانت تشنف الأسماع في مقدمة ذلك الموكب فرقة

موسيقية يعرف أنغامها جيدا، لأنها هي بعينها الفرقة التي كان مفروضا أن تحيي حفلته التمثيلية.

وفي وسط تلك الهالة، كان بدر الدجى متربعا في عرشه مرفوعا في المحفة فوق الأعناق تحف به المهابة والجلالة، وتطفح سحنته العبقرية الدمامة بما لا قبل لنا بوصفه من إمارات الزهو والعنجهية، وهو يجيل طرفه الشائه في تلك الهامات التي لا تبلغ موطئ قدميه.

وكانت هذه هي المرة الأولى التي يشعر فيها أنه شخصية لها خطرها، وهو الذي ألف من الناس أن يلقوه دواما بالمهانة والتحقير، والاشمئزاز والنكير.

ونحسبه كان يخال الناس قد أصابهم خبال أو منوا بالبلاهة، فقد كان لا يسمع شيئا من ضجتهم لأن به– كما علمنا– صمما من قرع الأجراس، ولكنه كان يرى حركات أيديهم، وتعلق أنظارهم به، وسرعان ما صدق لبساطته أنه أهل فعلا للمكانة التي رفعوه إليها، وللإجلال الذي يلقونه به.

وينبغي ألا ننسى أن جانبا من شعور الناس بالهيبة كان شعورا حقيقيا، فالأحدب كما عرفنا قوي البنية قوة هائلة، سريع الحركة غير مأمون البادرة. وتلك صفات ثلاث يحترمها الناس وينطوون لها على أكبار.

وذلك كله خليق أن يصور لنا عجب الجماهير حينما وقع الحادث التالي وقد توسط الموكب ساحة الاعتصاب، قريباً من الحلقة التي كانت

ترقص فيها الغجرية الحسناء. فقد تقدم رجل يشق الصفوف إلى أن وصل إلى المحفة التي تربع فوقها كازيمودو، فاختطف الصليب المذهب الكبير الذي كان أمير البلهاء يرفعه في يده شارة من شارات أمارته.

وكان هذا الرجل هو بعينه ذلك الأصلع العابس الذي كان يولي الراقصة الغجرية اهتمامه ويزعجها باتهامه إياها بالسحر. وقد تمكن جرنجوار في هذه المرة أن يراه على هيئته الكاملة فإذا به يرفل في ثياب الرهبان، وعرفه على الفور، فغمغم قائلا:

– وي! أنه أستاذي السابق في كلية هرمس، الأب كلود فرولو، أسقف كنيسة نوتردام، فما الذي أغراه بهذا الوحش الدميم.

ولم يكن جرنجوار هو الذي دهش وذعر وحده، بل لقد ارتفعت صيحة الدهشة والذعر من أفواه الجماهير المحتشدة وقد رأوا كازيمودو الهائل يثب من المحفة إلى الأرض، فأشاحت النساء بوجوههن صارخات كي لا يرين الأحدب وهو يمزق الكاهن إربا.

وقفز كازيمودو نحو الأسقف، ولكن الأسقف لم يتراجع بل صمد له، فحدق الأحدب في وجهه مليا، ثم خر أمامه على ركبتيه ساجدا، فمد الأسقف يديه وأخذ يمزق الطيلسان المزركش الذي يرتديه كازيمودو في غير شفقة ولا رحمة، والأحدب الهائل مطرق برأسه، لا يأتي بحركة ولا ينبس ببنت شفة، وقد عقد يديه فوق صدره.

وأخذ الناس، وكأن على رؤوسهم الطير، وهم يرون الأب فرولو منتصب القامة مرفوع الرأس، تفيض معالم وجهه الغائر الصدغين بأمارات الغضب والوعيد، والعملاق المتوحش مستكين أمامه، بل تحت قدميه في ذلة وضراعة.

وانتهى الحوار بأن وضع الأسقف كفيه فوق كتفي كازيمودو الهائلين، وأنشأ يهزه هزا عنيفا، ثم أومأ إليه بسبابته أن ينهض ويتبعه، فنهض كازيمودو على الفور وتبعه.

وحينئذ أفاق أعضاء الموكب وحاشية الأمير في بغتتهم الأولى، فهموا أن يدافعوا عن أميرهم الذي فجعوا فيه وفي مرحهم على هذه الصورة الغريبة، فإذا بكازيمودو ينصب من نفسه حاميا للأسقف، فيصرف بأسنانه ويلوح بقبضتيه في الهواء، فكأنه نمر هائج.

أما الأسقف فعاد إلى وقاره السابق، وأشار إلى كازيمودو ثم مشى، فأفسح الناس له الطريق، ومن أمامه كازيمودو يكفل له الحماية والرعاية، حتى إذا اخترقا ساحة الاعتصاب، فكر نفر من الرعاع أن يتعقبوهما، فعندئذ وضع كازيمودو نفسه في المؤخرة، وأنشأ يتبع الأسقف ماشيا بظهره القهقرى وهو يرمي الناس بنظرة كالجمر، مزمجرا كزمجرة الوحش الضاري فانصرف الناس مهرولين!

مطاردة أزميرالدا

وخطر لجرنجوار وهو في هذا المأزق أن يقتفي أثر الغجرية الحسناء، فقد رآها تنحرف إلى شارع كونتليري، ومعها عنزتها الصغيرة فانحرف هو أيضاً في ذلك الشارع وهو يقول لنفسه:

– وما المانع؟

فقد عهدنا جرنجوار فيلسوفا عمليا، وهو بحكم خبرته بشوارع باريس يعلم أنه ليس أوفق للإنسان المهموم من أن يتعقب امرأة حسنا، دون أن يعلم إلى أين هي ذاهبة..

وكذلك راح يتعقب تلك الفتاة الحسناء التي جعلت تحث الخطى، فتضطر رفيقتها الصغيرة إلى القفز وراءها كي تلحق بها، *** في إسراعها هذا محقة، فقد بدأت الشوارع تقفز من السابلة، وأخذت الحوانيت القليلة المتناثرة تغلق أبوابها. أما هو فقد علل النفس بأنه لن يخرج من هذه المطاردة بصفقة الخاسر، فهو شخصيا لا يعرف لنفسه مأوى ولا مستقرا، فلا وجه إذن للإشفاق من الابتعاد عن ذلك المأوى الذي لا وجود له. ثم حدث نفسه:

– أنها على كل حال لابد أن تكون ذاهبة إلى مسكن تقيم فيه في مكان ما، ثم من يدري؟ فليس هناك ما يمنع أن تكون للغجريات أفئدة رقيقة.

وعلى هذا النحو راحت أفكاره تبني القصور الشامخة في الهواء، وهو يتبع الفتاة وعنزتها، والطريق يزداد ظلمة ووحشة.

وعند منعطف من المنعطفات الكثيرة أدرك أن الفتاة شعرت بتعقبه إياها، فقد حولت وجهها إليه مرارا، كمن ضاق صدره بتلك المطاردة الغامضة. بل أنها كفت عن المسير لحظة قبالة مخبز سقط عليها من فرجته الضوء، فلما وصل إلى حيث كانت رمقته بنظرة فاحصة من رأسه إلى قدمه، ثم زمت شفتيها على ذلك النحو الذي عهده فيها من قبل حين كانت ترقص، ثم استأنفت طريقها بغير تعليق.

وقد فعلت تلك الإيماءة في نفس جرنجوار فعلها، لأنه أدرك أن وراءها شعورا بالاحتقار والسخرية، فطأطأ رأسه وشرع يباعد بينه وبين الفتاة وهو يتبعها، لشدة خجله من نفسه.

وقد أتاح ذلك لها أن تسبقه إلى الانحراف في الشارع التالي، فغابت عن نظره لحظات، ثم سمعها تطلق صرخة ثاقبة، فأسرع إليها، وانعطف في ذلك الشارع، فإذا به غارق في الظلام، لولا ذبالة خابية الضوء كانت تتراقص أمام بعض الدور تحت أيقونة للسيدة العذراء، وبفضل هذا الضوء الخافت استطاع جرنجوار أن يتبين الفتاة الغجرية وهي تناضل للخلاص من

رجلين يهمان بكتم أنفاسها كيلا تصيح، في حين راحت العنزة الصغيرة تنطح الهواء بقرنيها وتثغو مروعة، فصرخ جرنجوار وهو يتقدم في بسالة:

– النجدة يا رجال البوليس..!

فتحول إليه أحد الرجلين، فإذا بالوجه الذي يطالعه هو وجه كازيمودو المخيف، ولم يركن جونجوار إلى الفرار، ولكنه لم يجسر على التقدم بعد ذلك خطوة واحدة.

وهجم عليه كازيمودو فألقى به على بعد أربع خطوات فنزل فوق حجارة الشارع على أم رأسه، ثم تحول فاختطف الفتاة وغاص بها في الظلام، ووجهها مدلى فوق كتفه في خفة ويسر فكأنها شال رقيق من الحرير. وتبعه زميله، فأخذت العنزة المسكينة تقفز خلف الثلاثة وهي تطلق ثغاءها كأنها تصرخ صرخات الاستغاثة والتفجع. وصرخت الغجرية:

– القتلة! النجدة!

فإذا بصوت يدوي كالرعد من فوق صهوة جواد.

– قفوا أيها الأوغاد وأطلقوا هذه الفتاة.

ثم ظهر صاحب الصوت من الزقاق المجاور، فإذا به ضابط من ضباط الفرسان، وقد سل في يده سيفه، فانتزع الفتاة الغجرية من قبضة كازيمودو المأخوذ بهذه المفاجأة، ثم وضعها أمامه على السرج.

وأفاق الأحدب من ذهوله، فهجم على الضابط يسترد فريسته، وإذا بالعشرين جنديا الذين كانوا يتبعون قائدهم قد أحاطوا به وفي أيديهم السيوف، فأحدقوا به وقبضوا عليه وقيدوه، فجعل يرار ويرغي ويزيد ويعض، ولو كان الوقت نهارا لكانت رؤية وجهه وحدها كافية لبث الرعب في قلوب الجنود ولولوا منه فرارا، ولكن ظلام الليل كان قد جرد المسكين من أعظم وأفتك أسلحته، ألا وهو الدمامة التي زادها الغيظ والغضب قبحا على قبح وبشاعة على بشاعة.

وأما رفيقه الآخر فاختفي في أحشاء الظلام أثناء هذه المعركة.

ونعود إلى الفتاة الغجرية، فنراها قد استدارت في مجلسها ووضعت يديها كلتيهما فوق كتفي الضابط الشاب، وراحت تتأمل وجهه بضع ثوان، كمن انشرح صدرها لجمال طلعته وكريم نجدته، ثم بدأته الكلام، وقد رخمت من صوتها فوق رخامته:

– ما اسمك يا حضرة الضابط؟

فشد الضابط قامته وأجابها باعتداد:

– الكابتين فيبوس دي شاتوبير، في خدمتك أيتها الحسناء.

– شكرا لك.

وفي حين كان الضابط فيبوس يفتل شاربه في زهو، انفلتت الفتاة كالسهم من فوق صهوة جواده، وانطلقت تعدو في الظلام بسرعة البرق الخاطف، فنظر إلى الأحدب في تحسر ثم قال:

– أهذا هو الذي بقى لي؟ شدوا وثاقه جيدا، وإن كنت شخصيا أفضل لو أنه هو الذي هرب وبقيت الحسناء.

رحبة الأعاجيب

أفاق جرنجوار من غشيته التي أصيب بها من أثر سقوطه على أم رأسه، وراح يستجمع تلك الصور المختلطة التي طافت بمخيلته، وبذل جهد المستميت في لم شتاتها وتنسيقها، ولكن حال دون ذلك شعور مبهم بالبرودة، فتقلب في مضجعه، وإذا به يكتشف أنه راقد في خندق صغير تجمع فيه ماء الأمطار، فنهض وهو يسب الأحدب ويلعن يوما رآه فيه.

وجعل وهو سائر يكد ذهنه في حل لغز اختطاف الراقصة الغجرية، ولكن تفكيره لم يهده إلى شيء يطمئن إليه.

وازدادت برودة الليل، ولاسيما أن ظهره مبتل، ووجد أن المشي البطيء سيزيد وطأة البرد عليه، فأنشأ يسرع في خطواته، ولما وجد تلك السرعة غير كافية لبث الدفء في جسمه المقرور، أخذ يجري وإن كان لا يدري إلى أين تقوده قدماه. ثم تذكر ذلك المقعد الحجري الذي كان قد وعاه في ذاكرته واعتقد أنه خير مكان يأوي إليه ليلته هذه، وخيل إليه أنه سائر في عكس الاتجاه المفضي إليه، فدار على عقبيه وأنشأ يجري في الاتجاه المضاد من شارع إلى حارة، ومن حارة إلى زقاق، ولكنه ضل السبيل

في ذلك التيه المظلم، ولم يعد يدري أين يجد تلك الحشية الموعودة المصنوعة من الرخام.

وانعطف أخيرا في زقاق خيل إليه أنه ينتهي إلى بصيص من نار مشبوبة، فأسرع نحوها كالملهوف وعندئذ استلفت نظره شيء غريب: فقد كان الشارع لا يبدو خاليا كسائر الشوارع، بل أنه مملوء بالأشباح، ولكنها أشباح غامضة الشكل، تتحرك كلها في اتجاه واحد نحو تلك النار الموقدة في نهاية الطريق. وتجاسر فاقترب من شبح منها، فأي شيء يخشاه رجل خاوي الوفاض خاوي البطن؟

وما كان أشد عجبه حين وجد ذلك الشبح القصير الذي حسبه كلبا أو جديا، رجلا كسيحا يزحف على ركبتيه، وعندما أحس به الشبح رفع يديه نحوه صائحا بالأسبانية:

– صدقة أيها السيد!

فصاح جرنجوار مغيظا:

– فليأخذك الشيطان، وليأخذني معك!

واقترب من شبح آخر، فإذا به بلا رجلين ولا يدين، وقد اتخذ ساقين وذراعين من الخشب فبدا لمن ينظر إليه كأنه سقالة بناء متحركة. وحياة الرجل بذراعه الخشبية رافعا قبعته إلى مستوى ذقن جرنجوار وصاح:

– جد على أيها المولى بثمن رغيف.

وكان هذا المتسول يتكلم اللغة الإيطالية في هذه المرة، فقال جرنجوار:

– يبدو أنني في برج بابل!

ثم حث الخطى نحو النار استعجالا لما أمله لديها من الدفء، ولكنه وجد الطريق مسدودا. وكان السد في هذه المرة رجلا أعمى له لحية كثة، يلوح في الفضاء أمامه بعكازة ضخمة، ويسير إلى جواره كلب ضخم، وأحس به الأعمى فصاح:

– أعطني شيئاً!

وكان هذا المتسول يستجدي بلغة لاتينية فصيحة.

فسرى عن جونجوار، لأنه وجد متسولا يتكلم لغة العلماء والأدباء، وأحس أنه مطالب بالتلطف معه والاعتذار إليه، فرد عليه باللغة اللاتينية قائلا:

– أيها الصديق، لقد بعت في الأسبوع الماضي آخر قمصاني، فمعذرة، ونظرة إلى ميسرة.

ثم ترك الأعمى واستأنف طريقه مسرعا، بيد أن الأعمى لم يتركه يفلت بل أسرع وراءه حتى لحق به، وكذلك فعل الكسيح والمقعد الأكتع، وثلاثتهم يرددون في أعقابه عبارات الاستجداء باللغات الأجنبية الثلاث، في إيقاع واحد منغم، حتى أفلت منه زمام أعصابه وأطلق ساقيه للريح،

فجرى وراءه الأعمى والكلب، وكذلك جرى المقعد والأكتع، وللعكازات الثلاثة على الأرض وقع هائل في سكون الليل.

وكلما أمعن في الجري ازداد الجيش الذي يطارده عددا وعدة، ما بين عميان وعرج ومقطوعي الأذرع ونساء عجائز، وعور، ومجذومين، كانوا يخرجون من البيوت التي على الجانبين، ومن الكهوف والأقبية، صائحين بما يشبه العويل أو الزمجرة، ثم يقفزون وراءه كأنهم ضفادع استثيرت من مستنقع، فمس الوجل قلب جرنجوار.

ووصل أخيرا إلى نهاية الشارع، فوجده يفضي إلى رحبة واسعة تومض فيها مئات من النيران الصغيرة المشتعلة، فعول جرنجوار على أن يمرق من بينها بأقصى سرعته حتى يتخلص من مطارديه.. وإذا بالكسيح الذي كان يزحف وراءه وقد ألقى عكازيه بعيدا، ثم أسرع يجري وراءه بقدمين ليس في باريس ما هو أقدر منهما على الجري، وما لبث الأعمى أن أدركه أيضا وراح يحدق في وجهه بأوسع عينين براقتين رآهما في حياته، فقال جرنجوار مذعورا:

– أين أنا؟

فأجابه شخص لم يكن قد فطن إلى وجوده من قبل:

– أنت في رحبة العجائب!

– أنه لاسم على مسمى! فقد رأيت العرج يجرون، والعمي يبصرون، فليت شعري أين المسيح الذي يصنع هذه المعجزات؟

فتلقى جرنجوار جوابا على ذلك السؤال قهقهة بعثت الرعدة في أوصاله، فأجال عينيه فيما حوله على ضوء تلك الأنوار المشتعلة، فألفي نفسه في تلك الرحبة التي لم تطأها من قبله قدم إنسان شريف لا يمت إلى عالم باريس السفلى بصلة. فرحبة العجائب هي مركز الدائرة من مدينة اللصوص وقطاع الطريق والنشالين والمتسولين وكل من عضهم الفقر بنابه أو نبذهم المجتمع من حظيرته. فكأن تلك الرحبة هي البحيرة التي ينبع منها في كل يوم نهر الشر والإثم والفاقة والقبح لتنتشر جداوله في شوارع باريس، ثم إذا سجا الليل عادت تلك الجداول والأنهار المسمومة فصبت في تلك البحيرة التي نبعت منها مع شروق الشمس.

وفي هذه المدينة العجيبة تجد شواذ الآفاق من جميع الملل والأجناس، ما بين أسبان وطليان وجرمان، ونصارى ويهود ومسلمين وعبدة أوثان، ورهبان مطرودين من حظيرة الدين، وهاربين من وجه العدالة، وجنود سابقين فارين من الخدمة، ومومسات وقتلة، ومتسولين نهارا ينقلبون إلى لصوص ليلا.

ورحبة العجائب ساحة واسعة غير منتظمة الشكل، وغير مرصوفة، وحول النيران الصغيرة اجتمعت فصائل من هذا الخليط العجيب يتسامرون أو يتشاحنون، فكنت تسمع صراخا وضحكا وعويل أطفال وصياح نساء، وكانت حركاتهم في ضوء تلك النيران تنعكس لها ظلال غريبة.

ويبدو أن كل شيء في هذه المدينة العجيبة كان مشاعا، فالرجال والنساء والحيوانات، والسن والجنس والصحة والمرض، كانت كلها كأنها ولا وجود لها لدى الأفراد، وإنما هي قسط مشترك بين الجميع، يتخالطون ويمتزجون بغير تفريق.

وقد أتاحت تلك النيران لشاعرنا بيير جرنجوار أن يتبين فيما حول الرحبة بيوتا قميئة حقيرة، في كل منها كوة صغير مستديرة ينبعث منها ضوء ضعيف، فكانت هذه البيوت تبدو في الظلام وكأنها نساء عجائز قد وقفن صفا واحدا متشابكة أيديهن.

وفي هذه اللحظة طرق سمع جرنجوار صوت واضح النبرات صادر من بين تلك الأشباح التي طاردته إلى هناك:

– فلنأخذه إلى الملك.

فقال جرنجوار مذعورا:

– قسما بالعذراء، لا شك أن ملك هذا المكان تيس كبير!

أما الأشباح التي من حوله فرددت دعوة الداعي في هتاف عال:

– إلى الملك! إلى الملك!

ثم جروه جرا، وكل واحد منهم يجتهد أن يضع يده عليه حتى يدعي لنفسه نصيبا فيه، بيد أن مطارديه الثلاثة– وهم الأعمى– والأعرج والأكتع– تشبثوا به واستخلصوه من أيدي الآخرين بعنف وهم يصرخون:

– أنه غنيمتنا.

ثم اتجهوا به نحو ملكهم سالكين تلالا من الحجارة وأكواما من القاذورات والبراميل الفارغة والآنية المحطمة، ثم عبروا به بعد ذلك فناء كبيرا غاصا بالوحل، إلى أن أدخلوه في قاعة مترامية الأطراف دانية السقف معبقة برائحة كريهة هي مزيج من الخمر الرديء وعفونة الرطوبة ودخان الموقد.

وفي وسط هذه القاعة نار عظيمة في مدفأة ضخمة من الحجر، وقد حلق حولها خليط عجيب جدا من شرار الخلق وحثالة اللصوص، وفيما بينهم مناضد من الخشب المتآكل من فوقها أقداح الجعة والنبيذ.

ومن بين هذه المخلوقات لمح جرنجوار شخصا واحدا له بطن مستدير ووجه طلق المحيا، وقد أحاط بذراعيه عنق فتاة من العاهرات، أما الضجة التي كانت تملأ المكان فمصدرها تلك الأغاني المبتذلة التي كانت تنطلق بغير نظام من أفواه الحاضرين، كل منهم يغني على هواه الأغنية التي تعجبه باللغة التي تروق له، وقد يحتدم الخصام بين جارين فتتحطم الأقداح على الرؤوس ويثور العراك، وقريبا من النار جثم كلب ضخم، وجلس بضعة أطفال.

وأمام الموقد مباشرة برميل مقلوب جثم فوقه أحد المتسولين، وكان هذا البرميل هو عرش مدينة العجائب، وكان هذا المتسول هو ملكها العتيد.

ودفع الأعمى والأعرج والأكتع في قفا جرنجوار حتى جثا أمام الملك، فساد الصمت في القاعة كلها لحظة، حتى أثر ذلك الصمت المفاجئ في جرنجوار فكتم أنفاسه ولم يجسر على أن يفتح فمه أو يرفع طرفه.

ونظر إليه الملك مليا من فوق عرشه المرتفع ثم قال:

– من هذا الوغد؟

فأجفل جرنجوار، لأنه تذكر أنه سمع ذلك الصوت من قبل، وإن كان في هذه المرة يتكلم بلهجة الوعيد كمن بيده سلطان. بل أنه يذكر أنه سمع ذلك الصوت في هذا الصباح بالذات، لأنه كان أول صوت من الأصوات التي قاطعت روايته، وكان ما قاله عندئذ:

– إحسان لله يا محسنين!

ورفع جرنجوار بصره، ولم يكذب ظنه، فقد كان هذا الرجل هو كلوبان ترويفو.

ولم يكن ترويفو يرتدي شيئا غير ما كان يرتديه في الصباح من أسمال بالية. وكل ما هناك أن الجرح القديم الغائر الذي كان يشوه ذراعه قد اختفي من موضعه. وكانت في يده قبضة سوط مما كان يستخدمه الشرطة في ذلك الزمن لتفريق الغوغاء. وقد وضع على رأسه طرطورا صوفيا من طراطير الأطفال.

ومهما يكن من شيء، فإن جرنجوار شعر بشيء من آماله في الحياة يتجدد وقد عرف كلوبان ترويفو ملك مدينة العجائب، فتشجع وقال يخاطبه:

– يا سيد، يا مولاي، لست أدري بأي لقب أناديك.

– يا مولا ي، يا صاحب الجلالة، أيها الرفيق. نادني بأي صورة شئت، ولكن وضح لنا ماذا لديك دفاعا عن نفسك؟

فقال جرنجوار بينه وبين نفسه:

– دفاعا عن نفسي؟ هذا نذير سوء.

ثم أسرع يقول، وقد تلعثم لسانه:

– أنني أنا.. الذي.. أعني هذا الصباح.

فقاطعه كلوبان صائحا:

– قسما بمخالب إبليس! قل اسمك ولا تزد يا وغد، واعلم أنك هنا في حضرة ثلاثة عواهل عظام: أنا كلوبان ترويفو ملك تونس، وماتياس سبيكالي دوق بوهيميا وهو ذلك الشيخ الأصفر الذي تراه هناك وحول رأسه شملة كبيرة، ثم غليوم روسو إمبراطور الجليل، وهو ذلك الرجل البدين الذي لا يلقى بالا إلينا لانشغاله بتلك الصبية التي يحتضنها. ونحن الثلاثة قضاتك، والتهمة الموجهة إليك أنك دخلت أرض المملكة بغير إذن،

فانتهكت حرمة مدينتنا، واستوجبت العقاب، إلا إذا ثبت بدليل قاطع أنك لص أو متسول أو قاتل، فهل أنت من هذه الأصناف الثلاثة؟ تكلم الآن واذكر لنا مؤهلاتك، وإن كانت لك مؤهلات.

– وا أسفا.. لست حاصلا على هذا الشرف، فأنا المؤلف الذي..

– كفي! أنت مذنب، والعقوبة الإعدام شنقا. وإذا كنت من المتدينين فها هو حجر مقدس مسروق من قبر القديس بطرس، ولديك أربع دقائق بالضبط تستطيع فيها أن تسكب روحك كلها فوق هذا الحجر.

وانبعث صوت إمبراطور الجليل في هذه اللحظة وهو يقبل محظيته:

– مرحى! أن كلوبان ترويفو يخطب ببلاغة تزري بفصاحة البابا.

وعندئذ قال جرنجوار في هدوء وحزم لا يدري من أين هبطا عليه:

– سادتي الأباطرة والملوك والدوقات، أنكم لم تلقوا بالاً إلى حقيقة ضخمة، وهي أن أسمي بيير جرنجوار، وأنني الشاعر الذي كانت تمثيليته الأخلاقية تعرض هذا الصباح في القاعة الكبرى بقصر العدل.

فقال كلوبان.

– آه، هو أنت إذن أيها الأستاذ؟!. لقد كنت هناك بنفسي ولكن ما الذي يمنع من شنقك مع هذا؟ ألأنك قتلتنا ضجرا ومللا هذا الصباح، لا يصح أن نقتلك شنقا هذه الليلة؟

– ليس هذا هو الموضوع، وإنما الموضوع هو: لماذا لا يعتبر الشعراء من فريق المتشردين؟ ونظرة إلى تاريخ الأدب في القديم والحديث تطلعنا على صدق ما أقول. فهذا أيزوب كان متشردا، وهذا هو ميروس كان متسولا، وهذا ميركوريوس كان لصا.

فقاطعه كلوبان قائلا:

– سحقا لك. لماذا كل هذا الهذيان؟ لماذا لا تموت في هدوء ولا تقيم الدنيا وتقعدها في غير طائل، وبغير مقتض؟

– عفوك يا مولاي ملك تونس، فالمسألة مهمة، لأنها تتعلق بالمبدأ، فاسمح لي بدقيقة أخرى، فإنه لا يجوز أن تحكموا علي قبل أن تسمعوا دفاعي.

فارتفعت الضجة من حوله، وتقاربت رؤوس ملك تونس ودوق بوهيميا وإمبراطور الجليل في مداولة سريعة. وكان إمبراطور الجليل قد ثمل بشكل واضح. وبعد ثوان انتهت المداولة، ورفع كلوبان يده وصرخ في الحاضرين جميعا:

– صمتا.

ثم أشار بيده إشارة خاصة فبرز ثلاثة من الرجال الأشداء فأحاطوا بجرنجوار ثم أمرهم كلوبان قائلا:

– ارفعوا هذا المخلوق فوق مرتبته، وعلقوه في الحبل المدلى من السقف.

فلم يشعر إلا وقد أوقفوه فوق مقعد، ونهض كلوبان فوضع الحبل بيده حول عنقه، ثم ربت على ظهره قائلا:

– وداعا أيها الصديق، فقد حانت منيتك ولا نجاة لك.

ثم أشار إلى غجري ضخم وأمره أن يتسلق أحد الأعمدة، كي يستوثق من عقدة الحبل في السقف، فتسلق العملاق كأنه قرد، ورأى وجهه يطل عليه من أعلى. ثم أمر كلوبان شخصا اسمه أندريه الأحمر أن يدفع الكرسي من تحت قدمي جرنجوار متى صفق كلوبان بيديه، وأمر شخصا ثالثا اسمه فرانسوا أن يتعلق عندئذ بساقيه، على أن يضغط العملاق الرابض في السقف على كتفيه، بحيث يحدث ذلك كله في وقت واحد، ثم التفت إلى جرنجوار وقال:

– وهكذا أيها الصديق يتم رحيلك إلى العالم الآخر بأتم استعداد ممكن. والآن هل أنت مستعد؟

وهم أن يقول شيئا، ولكن ريقه جف، فنظر كلوبان إلى الجلادين الثلاثة وقال:

– هل أنتم مستعدون؟

ثم انحنى ليدس في نار الموقد قطعا من أغصان الشجر لم تكن النار قد مستها، فزاد عذاب جرنجوار المسكين، ثم رآه يقف ويرفع كفيه على أهبة التصفيق، بيد أنه لم يصفق، وظهرت على وجهه علامات التذكر، وقال فجأة:

– بل انتظروا لحظة، فقد نسيت شيئا من الإجراءات. فمن عادتنا ألا نشنق رجلا إلا إذا عرضناه على النساء، فربما رغبت إحداهن فيه. فإذا لم يجد مشترية شنقناه.

فتنفس جرنجوار الصعداء، وصاح كلوبان في جموع الحاضرين، وقد وقف فوق برميله:

– أيها النسوان جميعا، أسمعن وانظرن. هل منكن واحدة لها رغبة في هذا الصعلوك؟ هيا جميعكن، فهذه فرصتكن الأخيرة قبل أن يشنق، رجل بدون مقابل، ذكر بلا ثمن، هل من راغب؟ أنت يا ميشلين العرجاء، يا بيرارد البخراء، يا كلود البرصاء، هل من مشترية؟

ورشقنه بنظراتهن من بعيد، ولكن لم تبد عليهن الحماسة، ثم سمعهن يقلن:

– كلا. اشنقه أحسن، فإن ذلك سيدخل السرور على قلوبنا جميعا.

ثم ظهرت امرأة شابة مربعة الوجه، اقتربت منه ففحصت قميصه ووجدت به من الخروق ما ينافس به الغربال، ثم سألته بازدراء:

- أين قبعتك؟

- أخذوها مني.

- وحذاؤك؟

- انتزعوه من قدمي.

- وكيسك؟

- ليس معي دانق واحد.

- إذن دعهم يشنقوك، وكن من الشاكرين.

ثم استدبرته وانصرفت، وأقبلت على أثرها امرأة عجوز سوداء ملحوظة الدمامة حتى في مدينة العجائب هذه، فجعلت تفحصه وتجس لحمه وعظامه، حتى لقد خاف أن يعجبها، ثم غمغمت في اشمئزاز:

- أنه أنحف مما يجب.

وأعقبتها امرأة مليحة في مقتبل العمر، فراقت له وهمس يتوسل إليها:

- خذيني بربك، أنقذيني.

فرمقته بنظرة إشفاق، ثم غضت بصرها، وعبثت أناملها بثوبها ووقفت لحظة بين الأقدام والأحجام، وقلبه يدق دقا سريعا وقد تعلقت حياته بشفتيها، ثم قالت أخيرا:

– كلا، لا أستطيع، وإلا ضربني غليوم "خد الجميل".

ثم انصرفت عنه، وعندئذ هز كلوبان ترويفو رأسه أسفا وقال:

– أنك عاثر الجد أيها الرفيق، ولكني سأعطيك فرصة أخرى.

ثم وقف فوق البرميل واتجه مرة أخرى إلى النساء وصاح مقلدا دلال المزاد:

– عدد واحد رجل، صغير السن، نحيف، مفلس خائب. هل من مشتر؟ يا معاشر النسوان! هل من راغبة؟ واحد، اثنين، مشنقة!

فهجم الجلادون الثلاثة على جرنجوار للتنفيذ، وعندئذ حدث أمر عجيب، فقد ارتفعت من بين صفوف الغجر صيحة:

– أزميرالدا، أزميرالدا.

فأجفل جرنجوار، والتفت إلى مصدر الصوت، فإذا الجميع يفسحون طريقا تمر منه طلعة باهرة الجمال.

لقد كانت هي الغجرية الحسناء، ذات الرقص البديع والغناء الساحر.

وفغر جرنجوار فمه مأخوذا، وقد تجمعت كل ذكريات ذلك النهار في هذه اللحظة، وغمغم كمن يفيق من حلم:

– أزميرالدا. هذا إذن هو اسمها.

ويبدو أن هذه المخلوقة الفاتنة كان لها تأثير سحري على حياته اليوم، فقد كان ذكر اسمها هو الذي فض البقية الباقية من المشاهدين عن تتبع روايته. وكان رقصها وغناؤها هو سلوته من فشل ومن جوع في ذلك المساء، وكان تتبعه إياها هو الذي أفضى به إلى الاشتباك مع الأحدب كازيمودو فضربه تلك الضربة القوية التي أفقدته الصواب. وها هي الآن تظهر في اللحظة الحاسمة وقد أوشك أن يودع الحياة، فتنفرج لها الصفوف، ويتضح أن لها سلطانا حتى في هذا المكان وها هي تقبل نحوه على مهل، ومن ورائها عنزتها البيضاء اللطيفة تهز قرنيها وتتبختر بأظلافها الذهبية وقد تعلقت بها جميع العيون وطفحت وجوههم بدماثة ولين لم يكن يتصورهما في هذه الحثالة من الأشرار.

ورشقته الفتاة بنظرها دون أن تتكلم، ثم سألت كلوبان في اتزان:

– هل انتويتم أن تشنقوا هذا الرجل؟

– نعم يا أختاه، فقد عرضناه على كل الإناث فلم ترغب فيه واحدة منهن. إلا إذا اتخذته أنت زوجا.

فزمت أزميرالدا شفتيها بتلك الحركة التي عرفها جرنجوار من قبل، فقد رآها تأتي بها حين لمحته وهو يتعقبها، ثم قالت بهدوء:

– سآخذه. سأتخذه زوجا.

فأحس جرنجوار عندئذ أنه كان في حلم مستمر منذ الصباح، وأن ما يراه الآن ليس إلا استمرارا لذلك الحلم. فقد تغيرت الحال تغيرات مفاجئة لا ارتباط بينها. بل أنه كاد ينكر ما حظى به من العفو، إذ راح الجلادون الثلاثة يفكون عقدة الحبل، ثم أنزلوه عن المقعد العالي معززا مكرما، فتهاوى جالسا فوق المقعد. وجاءه دوق بوهيميا بوعاء خزفي، فتناولته أزميرالدا وقدمته إلى جرنجوار قائلة:

– ألق به على الأرض.

ففعل وتحطم الإناء. وعندئذ وضع دوق بوهيميا يده فوق جبينهما وقال:

– أيها الأخ، هذه زوجتك. أيتها الأخت، هذا زوجك، لمدة سنوات أربع!

وكان الإناء قد انكسر على الأرض أربع قطع.

وما هي إلا بضع دقائق حتى ألفي شاعرنا نفسه في حجرة صغيرة، قد أحكمت أبوابها ونوافذها، وشاع فيها الدفء، وقد أجلس إلى مائدة حافلة بالطعام والشراب، وبالقرب منه فراش وثير، وهو في خلوة تامة مع فتاة حسناء.

لقد بدت له هذه المغامرة غير المرتقبة ضربا من ضروب السحر، وأوشك أن يرى في نفسه شخصا من شخصيات الأساطير. فكان يرفع

نظره بين الفينة والفينة ويجيل الطرف فيما حوله، كمن لا يصدق حواسه. وكان بين الحين والحين يثبت نظراته في خروق سترته، لأن تلك الخروق كانت الدليل الوحيد الملموس بين يديه على واقعية مشاهداته.

أما الفتاة فلم يكن يبدو عليها أنها تعيره أي التفات. فهي تروح في الحجرة وتغدو عابثة بهذا الشيء أو ذاك، متحدثة إلى عنزتها، ثم استقر رأيها أخيرا على الجلوس فجلست قريبا من المائدة، فأتاح ذلك لجرنجوار أن يتفحصها بعينيه على مهل، وهي تلك الغادة الساخرة التي لم يكن رآها من قبل إلا لمحا وهي ترقص أو تغني، فقال يحدث نفسه:

– هذه إذن أزميرالدا، فهي في الواقع مخلوق سماوي، وراقصة من راقصات الشوارع، فهي إذن شيء ثمين جدا عالي القدر، وسهل جدا ليس له قيمة. وليس أدل على سلطانها السماوي من أنها عصفت بآمالي في الصباح حين قضت على تمثيليتي القضاء الأخير، وها هي الآن تنقذني في آخر لحظة من الموت وتهبني الحياة، وتبدو لي عروسا من عرائس الجنان. فيالك من شيطان مريد وملك كريم! وأنك لامرأة حسنا، شهية. ولابد أنك أيتها المليحة غارقة في حبي حتى أذنيك، وإلا لما اتخذتني زوجا على الصورة التي فعلت. فأنا إذن بطريقة ما زوج هذه الفاتنة.

ونهض من مقعده، عندما عششت في رأسه هذه الفكرة، وفاضت من نظرات عينيه وهو يقترب من الفتاة الشابة في أرشق خطوة، فتراجعت قائلة:

– ماذا تريد مني؟

فأجابها جرنجوار في لهجة تقطر صبابة، حتى لقد دهش في أعماق نفسه منها:

– ماذا؟ أيمكن أن تسأليني هذا السؤال يا معبودتي أزميرالدا؟

فحملقت فيه الغجرية بعينيها الواسعتين وقالت:

– لست أدري ماذا تعني.

فاشتدت به حرارة الوجد، وازدادت حماسته، وقال:

– ألست رجلك أيتها الحسناء؟

وبغير مزيد من التمهيدات أحاط خاصرتها بذراعيه، فأفلتت من بين يديه كأنها قرموط، وقفزت من أول القاعة إلى آخرها تاركة شالها الحريري في يده، ثم انتصبت أمامه وقد شهرت في يدها خنجرا صغيرا، وقدحت عيناها بالشرر، وتوهجت وجنتاها، وانفرجت شفتاها عن أسنانها، فكأنها في هياجها وحش كاسر. وفي الوقت نفسه تصدت له العنزة الصغيرة وقد أبدت نواجذها وشهرت في وجهه قرنيها الذهبيين.

وقد تم هذا في أقل من لمح البصر، فإذا بالملكة الرقيقة وقد انقلبت نحلة هائجة توشك أن تلسع عدوها الذي طمع في جني الشهد، فوقف فيلسوفنا مذهولا، ينظر في بلاهة إلى العنزة تارة، وإلى سيدتها تارة أخرى.

ورأت الفتاة جموده، فقالت:

– يظهر أنك شخص غاية في الوقاحة!

فابتسم جرنجوار وقال لها:

– عفوك يا آنسة، ولكن إذا كان لديك كل هذا المانع، فلماذا– ولا مؤاخذة– اتخذتني زوجا؟

– وهل كنت تاركة إياهم يشنقونك؟

فألقى هذا الجواب على أوهامه الدونجوانية دشا باردا، وقال:

– أنت إذن لم يكن لديك أي غرض آخر من الزواج بي، عدا إنقاذي من حبل المشنقة؟

ففغرت فمها وعينيها وأجابته:

– وأي غرض آخر يمكن أن يكون هناك؟

فعض جرنجوار شفته قهرا وقال لنفسه:

– آه، يبدو أنني لست من السطوة الكيوبيدية بحيث ظننت. ولكن إذا كان الأمر كذلك فقد ضاع ذلك الإناء الفخاري هباء.

وشعر في أعماق نفسه بالألم والتحسر للإناء المكسور هدرا، ثم قال:

– فلنعقد هدنة على أساس التسليم من جانبي بلا قيد ولا شرط، وأني اقسم لك أنني لن أقربك إلا بإذنك ورضاك.

فزمت الفتاة شفتيها، ثم انفجرت ضاحكة واختفي الخنجر من يدها بطريقة غامضة، فلم يدر جرنجوار المسكين أين اختفي، كما لم يدر من أين ظهر.

والواقع أنه لم يصعب عليه هذا التسليم كثيرا، لأن شاعرنا الفاضل لم يكن رجلا شهوانيا، ولم تكن معاشرة النساء أمرا ضروريا لديه في يوم من الأيام. فكان يسهل عليه ألا يكترث لخلوته في مخدع واحد مع فتاة فتاكة الحسن مثل أزميرالدا، فهز كتفيه وقال مشيرا إلى المائدة والأطباق:

– هل هناك مانع أيضا من أن أتعشى؟

– كلا.

وأقبلت ضاحكة على المائدة، فصبت له قدحا من البيرة، فأقبل على الطعام والشراب بشراهة عجيبة، وكان صوت الملعقة الحديدية وهي تحتك بالطبق الفخاري يصل إلى أذنيه صليلا حبيبا إلى نفسه، وكأنما كل حبه للحياة قد تحول إلى جوع.

وكانت الفتاة ترقبه وهي جالسة أمامه في صمت. وكان يبدو عليها أنها مستغرقة في عالم آخر من الخواطر، ولهذا الخاطر كان ابتسامها بين

الحين والحين، في حين كانت أصابعها الرقيقة تداعب رأس العنزة الذكية التي قبعت بين ركبتي سيدتها.

ولما هدأت ثائرة الجوع، شعر بشيء من الخجل لأن المائدة كانت قد أقفزت تماما من كل أثر للطعام، اللهم إلا تفاحة واحدة، فقال:

– يا آنسة آزميرالدا، أنك لم تأكلي؟

فلم تجبه، فكرر نداءها، فلم تجبه أيضا، فأيقن أن الفتاة سابحة في عالم لا قدرة لصوته على استردادها منه.

ولحسن الحظ تدخلت العنزة، فأخذت تجذب سيدتها بلطف من طرف كمها، فقالت أزميرالدا لها وهي كمن أفاقت من نومها فجأة:

– ماذا تريدين يا جالي؟

فقال جرنجوار، وقد سر لتلك الفرصة التي أتاحت له مجاذبتها الحديث:

– أنها جائعة.

فأخذت أزميرالدا تفتت قطعا من الخبز، وتقدمها إلى العنزة في راحة يدها، فتأكلها في خفة ورشاقة.

ولم يسمح لها جرنجوار بالعودة إلى شرودها، بل سألها مجازفا بعد أن امتلأت بطنه هذا السؤال الدقيق:

– ألا تريدين إذن أن تتخذيني زوجا؟

فشخصت إليه الفتاة بنظرة ثابتة وقالت:

– كلا..

– ولا عشيقا؟

– كلا..

– ولا صديقا؟

فنظرت إليه مرة أخرى نظرة ثاقبة، وتمهلت قليلا ثم قالت:

– ربما..

فتشجع الفيلسوف بهذا الجواب الفلسفي وقال:

– وهل تعرفين ما هي الصداقة؟

– نعم. أن نكون مثل أخ وأخت، روحين تلتقيان ولكن لا تمتزجان، كما يكون أصبعان في يد واحدة.

– والحب؟ أتعرفين ما هو؟

فارتجف صوتها، ولمعت عيناها، وقالت:

– الحب؟ آه! ذلك أن يكون الرجل والمرأة اثنين، ولا يكونان مع ذلك إلا شيئاً واحدا، يمتزج الرجل والمرأة حتى يكون منهما ملك واحد، وتلك هي السماء، وذلك هو الفردوس، فالملائكة لا تكون إلا في السماء.

وكانت الفتاة شديدة الحماسة وهي تنطق بهذه الكلمات، فأضفي ذلك عليها جمالا فريدا أخذ به جرنجوار، ولاسيما حين سكتت فإذا وجهها يضيء بنورانية خارقة، وقد انفرجت شفتاها القرمزيتان انفراجة يسيرة، وخرجت من بين أهدابها السوداء الطويلة أشعة ثاقبة تبعث الخشوع في النفس، فكانت أمام الشاعر الفيلسوف صمنا حيا للمقدسات الثلاثة: الطهارة والأمومة والقداسة..

وسكت جرنجوار خاشعا لحظة ثم سألها:

– ماذا ينبغي أن يكون الرجل إذن كي يروق لك؟

– ينبغي أن يكون رجلا.

– وأي شيء أنا إذن؟

– الرجل يلبس فوق رأسه خوذة، ويمسك في يده سيفا، ويضع في حذائه مهمازا مذهبا له صليل.

– ها ها! الحصان في نظرك إذن هو الذي يخلق الرجل، هل تعشقين أحدا؟

– أتقصد أنني أتمنى أن يكون ذلك الرجل عشيقي؟

– نعم.

فاستغرقت في التفكير لحظة، ثم قالت:

– سأعرف هذا عما قريب.

– ولماذا لا تعرفين ذلك الليلة؟ لماذا لا أكون أنا هذا الرجل؟

فرشقته بنظرة جادة وقالت:

– لا يمكنني أن أحب رجلا لا يقدر على حمايتي.

فتضرج وجه جرنجوار خجلا، لأنه أحس أن الفتاة تلمح بذلك إلى الدفاع الواهي الذي دافعه عنها حين هجم عليها كازيمودو وصاحبه منذ ساعتين، فضرب جبهته بيده وقال:

– لهذه المناسبة يا آنسة، كان ينبغي أن أبدأ الكلام بهذا الموضوع، فاغفري لي سهوي السخيف، وخبريني كيف قيض لك أن تنجي من قبضة كازيمودو؟

فأجفلت الفتاة عند سماع هذا الاسم، وأخفت وجهها بين يديها وهي ترتعد قائلة:

– يا له من أحدب دميم!

– أنه بشع الخلقة حقا، ولكن كيف استطعت الخلاص منه؟

فابتسمت أزميرالدا وتنهدت ولاذت بالصمت، فسألها جرنجوار:

– أتعلمين لماذا تبعك؟

– لست أدري. ولكنك أيضا تبعتني، فلماذا تبعتني؟

– الحقيقة، أنني لست أدري لماذا تبعتك؟

وساد الصمت لحظة، ثم شرعت تغني بصوت خافت، بيد أنها ما لبثت أن توقفت عن الغناء وتشاغلت بمداعبة جالي، فسألها:

– لماذا يسمونك أزميرالدا؟

فمدت يدها واستخرجت من صدرها كيسا صغيرا بيضاوي الشكل معلقا في رقبتها في عقد من الخرز، وكان هذا الكيس مكسوا بالحرير الأخضر، وفي وسطه فص من الزجاج الأخضر هو تقليد رخيص للزمرد، وقالت:

– ربما كانت هذه هي السبب، فأزميرالدا بالاسبانية معناها الزمردة.

فهم جرنجوار أن يتناول الكيس الصغير بين أنامله، فتراجعت الفتاة وصاحت:

- لا تمسسه، أنه تعويذة، ولمسك إياها يفسدها ويضرك فأثار ذلك فضول الشاعر وسألها:

- من الذي أعطاك إياها؟

فوضعت سبابتها على فمها إشارة إلى الصمت، وأخفت الكيس في صدرها، ولكن جرنجوار لم يقنع وعاد إلى سؤالها:

- هل أنت مولودة في فرنسا؟

- لا أعلم..

- وهل والدك على قيد الحياة؟

فشرعت عندئذ تغني الأغنية القديمة المعروفة:

"طائر من الطيور أمي

"وأبي طائر آخر

"أمر على الماء فلا أشرب

"وأمر على الطعام فلا آكل

"طائر من الطيور أمي

"وأبي طائر آخر

فقال جرنجوار:

– وهو كذلك. وكم كان عمرك حين جئت إلى فرنسا؟

– كنت طفلة صغيرة جدا

– ومتى جئت إلى باريس؟

– في العام الماضي. في أواخر أغسطس

– وهذا الرجل الذي تدعونه دوق بوهيميا، أهو زعيم قبيلتك؟

– نعم..

– لقد كان هو الذي عقد زواجنا

فزمت شفتيها على طريقتها المعهودة وقالت:

– لست أعرف حتى مجرد اسمك

– اسمي؟ أن أردت أن تعرفيه.. هو بيير جرنجوار

– أعرف اسما أظرف منه

– يا لك من عابثة! ولكن لا بأس، فلن تستثيريني بمثل هذا، بل لعلك تحبينني حين تزداد معرفتك بي، وأراك قد بحت لي بتاريخ حياتك، لهذا أرى من واجبي أن أحدثك أنا أيضا عن نفسي. لقد ذكرت لك أن

أسمي بيير جرنجوار، وقد كان أبي مزارعا وموظفا سابقا في المحكمة. ولكن أثناء حصار باريس شنق البرغنديون أبي، وشقوا بطن أمي، وكان ذلك منذ عشرين سنة، فتيتمت ولي من العمر ست سنوات، ولا أملك من حطام الدنيا شيئا، وليس لقدمي نعل سوى أرض شوارع باريس. ولست أدري على وجه التحقيق كيف قضيت السنوات من السادسة إلى السادسة عشرة، وكل ما أعلمه أنني كنت أخطف رغيفا من هذا المخبر، أو ثمرة من هذا الدكان. حتى إذا جن الليل تصديت لرجل من رجال العسس فيقتادني إلى السجن حيث أجد كومة من القش افترشها حتى الصباح، وفي سن السادسة عشرة فكرت جديا في أن أتخذ لنفسي حرفة أعيش منها، وجربت كل مهنة تخطر بالبال: فاحترفت الجندية، ولكني لم أكن على قسط من الشجاعة كاف، فتركت الجندية وانخرطت في سلك الرهبنة، ولذلك أعرف شيئا من اللغة اللاتينية، ولكن لم أفلح في تلك الحياة فطردوني، فاتجهت إلى حرفة النجارة، ولكن لم تتوفر لدي القوة العضلية الكافية للنجاح فيها فتركتها لأشتغل بالتعليم، فاتضح أنني أجهل من تلاميذي بالقراءة والكتابة. وأخيرا استقر رأيي على أن أغدو شاعرا، فتلك مهنة لا تستلزم من الإنسان مزية معينة. وهي أنسب المهن للأفاقين، ولكنها خير على كل حال من احتراف اللصوصية كما نصحني بعض معارفي، ثم شاء لي حسن الطالع أن التقي بالأب كلود فرولو، أسقف كنيسة نوتردام، فعطف علي واهتم بأمري. وإليه يرجع الفضل في أنني أصبحت من رجال الأدب، وفقهني في علوم الدين وفي ذخائر الأدب القديم وأصول الكتابة وحياة القديسين، فكانت باكورة إنتاجي الأدبي تلك المسرحية التي مثلت اليوم

واجتمع كل سكان باريس لمشاهدتها في القاعة الكبرى بقصر العدل، وقد ألفت أيضا كتابا في ستمائة صفحة عن المذنب الهائل الذي ظهر سنة ١٤٦٥ وتسبب في إصابة رجل بالجنون، فها أنت ترين أنني لست مجردا من المزايا والمؤهلات، فلا تتحسري ولا تندمي كثيرا على ربط حياتك بحياتي، فإني أعرف حيلا كثيرة، وسوف ألقن عنزتك العزيزة جالي كيف تقلد أسقف باريس، وهو ذلك الملعون الذي يملك الطواحين المائية التي ترش المارة فوق قنطرة الطواحين بالماء. ثم أن روايتي ستأتيني بمبلغ طيب من المال، إذا قر رأي ناظر القصر على الدفع، وبالإجمال تريني في خدمتك أنا ومؤهلاتي ومواهبي ومعارفي المستفيضة في العلوم والفنون والآداب. وأنا على أتم الاستعداد للحياة معك يا آنسة على الوجه الذي يروق لك، أعني في طهر وعفاف أو غير ذلك طبعا، فإن شئت كنا أخا وأختا، وإن شئت كنا زوجا وزوجة.

ثم سكت جرنجوار في انتظار ما أحدثته خطبته الطويلة من أثر، وكانت الفتاة مطأطئة الرأس شاخصة ببصرها إلى الأرض، فرفعت رأسها إليه فجأة وسألته:

– فيبوس.. ما معنى هذه الكلمة؟

فلم يستطع جرنجوار أن يدرك ماذا يمكن أن تكون الصلة بين خطبته الطويلة عن تاريخ حياته وبين هذه الكلمة. ثم خطر له أنها امتحان لمعلوماته، فقال:

– هي كلمة لاتينية معناها الشمس.

– الشمس؟

– نعم، وهي أيضا اسم رام مشهور بالقوس والنشاب كان يعد من الآلهة.

– إله؟!

وظهر على وجه الفتى إشراق انقلب بعد قليل إلى استغراق في التفكير، وفي هذه اللحظة وقع على الأرض سوار من أساورها، فانحنى كي يلتقطه، فلما انتصب لم يجد للفتاة ولا لعنزتها أثرا، وسمع صوت باب يقفل بالمزلاج، وكان هذا الباب هو الفاصل بين مخدعين..

المسوخ والقسيس الشاب

قبل الوقت الذي بدأت فيه حوادث قصتنا بست عشرة سنة، وذات صباح رائق من يوم الأحد التالي لعيد الفصح المجيد خرج الناس من صلاة القداس في كنيسة نوتردام، ليجدوا على الدرج القائم على يسار المدخل طفلا صغيرا تحت قدمي تمثال القديس كريستوف.

وقد تعود الناس أن يضعوا اللقطاء في ذلك المكان، فيعرضونهم هناك على أنظار المحسنين الأتقياء لعل الشفقة تأخذهم بهم فيتبنونهم. ولا تحتاج إجراءات التبني إلى أكثر من أن تحمل السيدة أو الرجل الطفل الذي يروق لهما وينطلقان به. وعلى هذا الأساس كان كثيرات من النساء الآثمات اللاتي يلدن سفاحا يتوصلن إلى تبني أطفالهن تحت ستار من الشفقة والعطف بعد أن يكن قد وضعنهم خلسة عن العيون، متعللات بالسفر إلى الريف أو ما أشبه.

ولكن اللقيط الذي كان مطروحا هذا الصباح من ربيع سنة ١٤٦٧ كان فيما يظهر له شأن خاص، فقد تجمع حوله جمع غفير من الخلق فيهم نسبة كبيرة من الجنس اللطيف، إذا صح إطلاق هذا الاسم على حفنة من العجائز.

وفي مقدمة المحتشدين أربع راهبات، وكن قد حضرن من ديرهن لحضور القداس بتصريح من الرئيسة، وكانت الأخت انييس أول من فطنت إلى وجود هذا اللقيط الذي كان يصرخ ويتلوى، فدقت صدرها بيدها وقالت:

– ما هذا يا أخواتي؟

فاقتربت الأخريان ونظرن إلى وجهه وقلن:

– هذا خامس لقيط يعرض هنا منذ بداية السنة.

– أنه ليس طفلا.

– هل انحدرت صناعة إنجاب الأطفال إلى هذا الحد؟

– أنه قرد مشوه الخلقة

– قرد؟ ألا تسمعين؟ أهذا صوت قرد؟

– معك حق. هذا خوار ثور

– اعتقادي أنه حيوان غريب، أو لعله من صلب يهودي ممن غضب الله عليهم، وأعتقد أنه من الثواب أغراقه أو احراقه.

– فعلا. فمن ذا الذين يتبنى هذا الممسوخ؟!

– ومن تلك التي تجسر أن تلقمه ثديها؟

– أهون عليها أن ترضع أفعوانا!

– ترضع؟ أنظري! فمه ملآن بالأسنان

– صحيح. أنه تجاوز العام الثاني، ولا شك أنه ليس بحاجة إلى الرضاعة.

– ولكنه بحاجة إلى عين أخرى، فهو أعور

وزاد هياج الطفل الممسوخ، وراح يحرك يديه ورأسه ويجأر بصوت مخيف. وفي أثناء تلك المناقشة النسوية، كان راهب شاب يصغى إلى ما يقال بانتباه. وكان إلى شبابه صارم الملامح، حاد النظرات، عريض الجبهة. فلما وصلت المناقشة إلى ذلك الحد، شق لنفسه طريقا بين الواقفين والواقفات، حتى وصل إلى الطفل العجيب التكوين فتمعن فيه طويلا، ثم بسط فوقه يده وقال:

– سأتبناه أنا!

ثم لفه في ردائه الكهنوتي وحمله فدخل به الكنيسة من الباب الأحمر المخصص لرجال الكهنوت المقيمين هناك.

ووجمت الراهبات، وجعلن يتتبعنه بأنظارهن حتى وأراه الباب، فقالت إحداهن عندئذ هامسة في أذن زميلاتها:

– ألم أقل لكن مرارا أن هذا القسيس الشاب من السحرة؟

والواقع أن كلود فرولو لم يكن من عامة الناس، فهو ينتمي إلى أسرة من تلك الأسرة القديمة المعروفة في ذلك العهد بما يسمى طبقة صغار النبلاء. وقد ورثت تلك الأسرة وقفا يتألف من واحد وعشرين بيتا من قلب باريس.

وقد وجهت الأسرة ابنها كلود فرولو منذ نعومة أظفاره للتعليم الديني، فتعلم منذ صغره اللاتينية، وربي على غض الطرف وخفض الصوت، حتى إذا شب عن الطوق ذهب إلى الجامعة الكهنوتية طالبا بالقسم الداخلي، فتمت بذلك تربيته المتزمتة، ونشأ جادا صارما دؤوبا على الدرس سريع الحفظ كارها للعب.

يضاف إلى هذا أنه كان يختلف في أوقات الفراغ إلى المدارس المدنية فيتلقى دروسا في العلوم الحديثة، وأفاده ذلك الجد فنجح في امتحان اللاهوت في سن السادسة عشرة وحصل على شهادة في القانون الكنسي، وعلى درجة الدكتوراه من السربون في فلسفة اللاهوت فرسم قسيسا.

ولم يكتف الأب كلود فرولو بما حصل من علم قبل رسامته، فانكب على دراسة العلوم الطبيعية والطب وسائر الفنون المدنية الأخرى، حتى بات خبيرا في الأعشاب والمراهم وعلاج الحميات وتضميد الجروح، وأتقن الإغريقية والعبرية والسريانية واللاتينية.

وفي نحو ذلك الوقت، أي في سنة ١٤٦٦، اشتدت حرارة الجو اشتدادا فظيعا في فصل الصيف، فتفشى وباء الطاعون في باريس، وراح

ضحيته أكثر من أربعين ألف نسمة. وكان أبو القسيس الشاب بين هؤلاء الضحايا. فخف كلود فرولو إلى بيت أبويه، فإذا به يجدهما قد ماتا في اليوم السابق، وقد رقد إلى جوارهما أخوه الأصغر الذي لا يزال طفلا في مهده، وقد كاد يهلك جوعا، وفرائصه ترتعد لكثرة ما بلل به ثيابه، فكان هذا الأخ هو كل ما تبقى للأب كلود فرولو من الأهل والأقارب.

وقد أثرت هذه النكبة على حياة كلود أيما أثر، لأنها جعلت منه وهو في سن التاسعة عشرة رب أسرة مسئولا عن أخيه الطفل اليتيم، فأيقظته هذه الصدمة من أحلامه الفكرية والعقلية وردته إلى مسئوليات الواقع.

وعطف القسيس على أخيه الأصغر جيهان عطفا شديدا، وتعلق به تعلقا لا يكون إلا من والد نحو ولده. وكان ذلك غريبا حقا لأنه كان قد افترق عن والديه منذ الصغر، ولم يعهد في نفسه التعلق بهما ولا بأي شيء من الأشياء الدنيوية. فإذا بهذا الطفل الضعيف يخلق منه إنسانا آخر يختلف عن سابق العهد به كل الاختلاف.

وهكذا اكتشف كلود فرولو أن في العالم أشياء أخرى غير الكتب والسربون وأشعار هوميروس، وعرف بالتجربة أن الحياة بغير حنان وبغير حب جامدة ثقيلة على القلب.

ولكنه بقى على اعتقاده في شيء واحد، ذلك أن حب الأقربين والأهل هو وحده الحب الصحيح، وهو كاف لشغل الحياة.

ولم ينصرف كلود فرولو مع ذلك عن العلم والدرس، بل كان يجمع بين رعاية أخيه ورعاية عقله وثقافته، بعد أن كان همه كله منصرفا إلى المنحى الأخير وحده. فذاعت له شهرة مستفيضة بسبب ذلك في العلوم وفي اللاهوت، حتى غدا وهو في سن العشرين أشهر وأبرز الكهنة الذين يلقون المواعظ في كنيسة نوتردام.

وكان من عادته بعد ختام القداس أن يتوجه إلى الجامعة لتسقط آخر أنباء العلوم، وتسامع الناس بذلك، فظن العامة به الاشتغال بالسحر، كما كان الظن بكل من يقر شيئا عدا كتب الصلوات والأدعية. فالطيب ساحر، والفلكي ساحر، ومن يعرف اليونانية أو العبرية ساحر.

وكان الأب كلود فرولو خارجا ذلك الصباح عقب صلاة القداس فتوجه إلى الجامعة كعادته، حين رأى هذا الجمع محدقا باللقيط، وسمع تلك التعليقات اللاذعة، فتأمل وجه الطفل وألفاه أبشع ما رأى في حياته من سحن الأطفال. بيد أن حبه الشديد لأخيه الصغير جيهان جعله يتصور أن ذلك الأخ قد يتعرض لمثل هذا لو أنه مات، فيعرض على الناس على هذه الصورة، ويتعرض لأذاهم وقسوتهم، فاندفع نحو الطفل وحمله ثم انصرف عائدا إلى صومعته داخل الكنيسة.

فلما أخرج الطفل من السلة التي كان موضوعا فيها، وجده أقبح مما كان يبدو لأول وهلة، فبين كتفيه حدبة كبيرة، وصدره بارز بروزا شاذا، ورأسه الضخم مدسوس بين كتفيه بغير عنق، وعموده الفقري معوج، وساقاه مقوسان ومع هذا فقد كان الطفل زاخرا بالحيوية، قوي البنية. فزاد

عطف كلود عليه لدمامته المفرطة، وآلى على نفسه أن يربيه كي يكون مؤنسا لأخيه، وشفاعة له. فإذا نشأ أخوه نشأة غير صالحة، كانت تربية هذا المسخ ثوابا.

فهذا التبني إذن كان عملا نبيلا، ونوعا من استثمار الصالحات استثمارا حسنا.

وقام كلود بعد ذلك بتعميد الأحدب، وأطلق عليه اسم كازيمودو.

قارع النواقيس

أما ونحن في سنة ١٤٨٢، فقد نما كازيمودو حتى أصبح عملاقا هائل القوة، وقد مضت عليه عدة سنوات قائما بوظيفة قارع النواقيس في كنيسة نوتردام، منسوبا بنعمة الله إلى كلود فرولو الذي ارتقى أخيرا إلى مقام الأسقفية بفضل ولاء أسرته للشريف لويس دي بومون الذي عين منذ سنة ١٤٧٢ مطرانا لمدينة باريس.

فكازيمودو هو قارع النواقيس في كنيسة باريس الكبرى. وبمرور الزمن توثقت أعمق الصلات بين قارع النواقيس والكنيسة العريقة. فقد درج كازيمودو منعزلا عن العالم انعزالا تاما، بحكم جهله نسبه وسر مولده، وبحكم دمامته الفطرية، فنشأ وهو لا يرى له ملاذا إلا حيطان تلك الكنيسة العالية، فهي بالنسبة إليه بمثابة البيضة التي نقف منها الفرخ، ثم بمثابة العش والدوحة، بل هي عنده عالمه بأسره.

فلا عجب إذن أن يتولد نوع عجيب من التعاطف والتفاهم السري بين هذا الأحدب وبين ذلك البناء الشامخ المترامي الأطراف. فكم زحف على ركبتيه يحبو بين تلك الأبهاء والدهاليز وفي ظلال تلك الأبراج والأقبية، وفي منعطفات تلك السراديب، وفوق درج تلك الأجراس الشامخة.

ومع مرور الزمن صار الطفل يلهو بصورة طبيعية متعلقا بحبال الأجراس المدلاة من تلك الأبراج الشاهقة، ثم يتعلق بها فتتحرك الأجراس. وشيئا فشيئا زادت معرفة الأحدب بكل ركن من أركان تلك الكنيسة، حتى صار أشبه بجزء منها. بل أنه يعرف منها أجزاء لم يعرفها أحد سواه من سكانها والمترددين عليها، فكم من مرة تسلق طوابقها العالية غير مستعين بشيء على الإطلاق سوى نقوشها البارزة التي تمثل القديسين أحيانا، وتمثل الشياطين أحيانا أخرى، فكان من يراه في تسلقه ذاك فوق الواجهة الشاهقة يحسبه برصا كبيرا، والواقع أن الأحدب كان يجمع في جسمه الغريب التكوين مزايا حيوانية تصله بالنسانيس، وبالغزلان، وبالفيلة، وبالنمور والتماسيح، ولكنه مع هذا حيوان أليف.

ولم تتأقلم بنيته وتتشكل بقالب الكنيسة فقط، بل أن عقله أيضا قد تشكل بها. فكيف تم ذلك التشكل؟

نحن نعلم أن كازيمودو ولد أعور أحدب أعرج. وقد تجشم الأب كلود فرولو صعوبات ومشقات هائلة حتى علمه النطق والكلام. بيد أن القدر أبى إلا أن يتعقب المسكين في غير هوادة إذ أنه عين قارعا للأجراس وهو في سن الرابعة عشرة، فكان ذلك سببا في إصابته بعاهة أخرى أتمت عزلته عن العالم الخارجي، فقد خرقت رنات الأجراس طبلة أذنه فغدا أصم فلم يعد له اتصال بالعالم إلا عن طريق عينه الواحدة.

ولما كان قد ألف من الناس السخرية والإساءة لغير ذنب جناه، فقد تعود أن يجنب نفسه ذلك ما استطاع، بالإضراب عن الكلام قدر

الإمكان. فلم يكن يخرج عن صمته في الغالب إلا إذا كان في عزلة. وأثر ذلك على كلامه، فصار صوته أجش ناشزا، كصرير باب علا مفصلاته الصدأ. وكان كذلك يتكلم بصوت مرتفع جدا، بسبب صممه.

وأظن أنه لا يصعب علينا الآن أن نتصور جوه العقلي على ضوء ما تقدم. فتفكيره ساذج محدود جدا. وهو ينطوي على سوء ظن شديد بالناس، وكراهية لهم. وهو رد فعل طبيعي لما آنسه فيهم دواما من الرغبة في الإيذاء بغير سبب، فشاع عنه أنه شرير غير مأمون الجانب، مع أن ذلك غير صحيح.

وليس غريبا إذن أن نرى كازيمودو محبا للعزلة، ففي صحبة الأجراس الناطقة، أو التماثيل الصامتة ما يغنيه عن مصاحبة الآدميين، وقد ألف أن يتحدث إليها حين يختلي بها حديثا مسموعا، فيبثها ذات نفسه مطمئنا إليها، ويفزع إليها ليخبرها بما يرى وما يحس.

ولكن كان أحب ما يحب في هذه الكنيسة هو أجراسها النحاسية الضخمة، فقد كانت وحدها قادرة على أسماعه بعد صمم. وكان أكبر هذه الأجراس أحبها إليه. وكان يطلق عليه اسم "ماري". وموضع ماري في البرج الجنوبي، الذي لا يشاركها فيه إلا شقيقتها جاكلين التي تصغرها قليلا. ومجموع الأجراس التي تحت رعايته خمسة عشر ناقوسا، لا تدق كلها إلا في المناسبات الكبرى وأيام الأعياد. فكان في تلك الأيام يقف وقفة العريس في انتظار اللحظة المرتقبة، حين يشير إليه الأسقف قائلا:

– انطلق!

فينطلق بقفزاته العرجاء السريعة فوق سلم الكنيسة المتآكل بسرعة تجل عن الوصف، ثم يندفع لاهث الأنفاس إلى مخدع ماري، فيلقي عليها أولا نظرة فياضة بالحنان والشغف، ثم يربت على جسمها بيد حانية، كأنه يدلك جوادا عزيزا، أو كأنه يستغفرها لما سوف يسببه لها من التعب. ثم بعد ذلك ينادي مساعديه أن ينتشروا في الأبراج الأخرى، كي تبدأ بعد ذلك الدقات كلها في وقت واحد. وكان كازيمودو حين يتعلق بحبل ماري يشعر أن كل جزء من جسمه يهتز ويتذبذب معها، فينشرح صدره وتتفتح نفسه ابتهاجا، كابتهاج العصفور بنور الشمس.

* * *

ولئن كان هذا إحساس كازيمودو بالبناء العتيق، وبالأجراس والتماثيل، بحيث يألف هذه الأشياء الجامدة ويتعلق بها من دون البشر، إلا أن هناك شخصا واحدا يستثنيه كازيمودو من كراهيته للجنس البشري، ويتعلق به تعلقا ليس له نظير.

وكان هذا الشخص الوحيد، الذي ربما أحبه أكثر من حبه الكنيسة وأجراسها بما فيها ماري، هو الأب كلود فرولو.

وسبب هذا الحب واضح كل الوضوح، فالأب كلود فرولو هو الذي تبناه ورباه. وعلى ركبتيه كان يدلله، وإليه كان يفزع حين يطارده الأطفال أو تطارده الكلاب. والأب كلود فرولو هو الذي دربه على المشي والكلام

والقراءة والكتابة. وهو الذي جعل منه قارع نواقيس، وذلك شيء لا يستهان به. لأن الذي منح كازيمودو وصال ماري، فكأنه قد منح روميو يد فاتنته جولييت.

فلا غرو أن يكون شعور كازيمودو بفضل ولي أمره ورب نعمته عميقا صادقا ليس له حد. ولم يقلل من ذلك الحب ما كان يبدو على القسيس من جهامة وصرامة، فلم يكن يحدثه إلا نزرا، وفي اقتضاب وبصوت أجش. ولكن ذلك كله لم يمنع كازيمودو من الإخلاص له والتعلق به في عبودية وخضوع ليس لهما حد، بل لعلهما يفوقان ما عرف عن الكلاب من الوفاء والإخلاص.

ومنذ أصيب قارع النواقيس المسكين بآفة الصمم، نشأت بينه وبين الأب كلود فرولو لغة من الإشارات لا يعرفها أحد سواهما، فأصبح الأسقف هو الشخص الوحيد الذي يستطيع التفاهم مع الأحدب.

وكان نفوذ الأسقف على كازيمودو لا حد له. فأهون إشارة من يده كافية أن تجعل الأحدب يلقي بنفسه غير متردد من أعلى برج في الكنيسة. وكان لا يجسر على رفع بصره إلى سيده، فكأنه أمامه عابد بين يدي إله معبود.

* * *

ففي عام ١٤٨٢ كان كازيمودو إذن في نحو العشرين من عمره، وكان الأب كلود فرولو في نحو السادسة والثلاثين، وأولهما في عنفوانه لم يبلغ بعد أوج شبابه، أما الآخر فكان قد اكتهل قبل الأوان.

ولم يعد كلود فرولو ذلك العالم الناشئ، أو ذلك المربي، ولا الفيلسوف الحالم. بل هو الآن رجل شديد الصرامة شديد الهيبة، قوي النفوذ، يأتي في المرتبة بعد مطران باريس مباشرة، وتحت يده عدد كبير من الكهنة، ورصيد كبير من ريع الأوقاف والنذور.

ونبادر فتقرر في هذه المناسبة أن كلود فرولو لم يدخر تعليما ولا تهذيبا في وسعه نحو أخيه. فقد كان لا يعرف في الحياة مشغلة سوى الدراسة وتربية شقيقه الصغير. ولكن جيهان فرولو لم ينشأ تلك النشأة التي أرادها له أخوه. فقد كان أخوه يريد له أن يشب طالبا مجدا تقيا مطيعا حسن الحفظ جديرا بالثقة. بيد أنه شب كالنبات البري الذي يعيي البستاني تشذيبه وتوجيهه، فصار مدمنا على السكر والعربدة، كسولا متلافا زنديقا محبا للفسق والفجور.

ولم يكن أحب إلى جيهان فرولو من تأليف عصابة من الطلبة الماجنين، فيسطون فجأة على حانة متطرفة، ويضربون الخمار علقة ساخنة، ثم ينهبون الحانة ويشربون الخمر، وما بقى يريقونه في القبو ثم ينصرفون.

وتقدم السلطات تقريرا طويلا باللاتينية إلى الأسقف، الذي يستر الفضيحة ويعوض الرجل عن خسائره، ولا يجد ما يسليه عن هذه الكارثة

التي شوهت أحب المخلوقات إليه، سوى الانصراف إلى العلم. وبذلك كان جهل أخيه يتناسب باستمرار تناسبا عكسيا مع تبحره في العلوم.

وكلما زاد انصرافا إلى العلم، اشتد انطواؤه على نفسه، وقل اختلاطه بالناس، وعظمت صرامته وجفوة مظهره، واستولت الكآبة عليه. فأثر ذلك في صحته وفي سحنته تأثيرا حاسما، فسقط شعر رأسه حتى لم يبق منه إلا النزر اليسير في العارضين، وكان هذا النزر قد اشتعل شيبا.

وأكبر الظن أن العلوم المسموح بها في عصره لم تكن كافية لإشباع نهمه المحموم إلى العلم، ذلك النهم الذي لم يكن مصدره الرغبة في المعرفة بقدر ما كان باعثه الابتعاد عن الدنيا ومغالبة أشجان نفسه وثورة أعصابه. فسمح لنفسه أن يقرأ في الكتب الممنوعة ولاسيما ذلك التراث الفلسفي الضخم الذي خلفه حكماء العرب، وبخاصة حكيم الأندلس وفيلسوفها، أعظم شراح أرسطو حتى ذلك الوقت، ألا وهو ابن رشد.

ولم يقصر اهتمامه على الفلسفة بفنونها المختلفة ومزالقها، بل تبحر أيضا في علوم الفلك، وفي الكيمياء وكانت صناعة الكيمياء في ذلك الزمان لا تعني في نظر الناس إلا شيئا واحدا هو اكتشاف حجر الفلاسفة، أو الوسيلة التي تحول بها المعادن الخسيسة– كالرصاص وما إليه– إلى ذهب.

وكان الأسقف قد اتخذ لنفسه جناحا خاصا، هو أحد البرجين المطلين على ساحة الاعتصاب، بالقرب من قفص الأجراس. وكانت صومعته هناك

محرمة على الجميع، فلا يجسر أحد على دخولها بغير إذنه الصريح وفي وجوده، حتى ولو كان من يريد الدخول هو مطران باريس نفسه.

وبديهي والحالة هذه أنه لم يكن أحد من الناس يعرف شيئا عن محتويات هذه الحجرة. ولكن كل ما يعلمونه عنها أن وهجا أحمر أو أصفر غريبا كان يبدو للمتلصصين ليلا من كوة صغيرة خلفية قريبة من السقف. وكان هذا الضوء أشبه أن يكون صادرا عن ألسنة من اللهب. فكان النسوة من الجيران يتهامسن بأنه يستحضر الجن، وأن هذه النار تندلع من جسومهم من أثر الجحيم الذي يعيشون فيه.

وبديهي أيضا أن سمعة السحر أخذت تحيط به وتنتشر بين الناس عامتهم وخاصتهم. ولكن لم يجسر أحد على التصريح بذلك علنا، أو على شكايته إلى السلطات، لمركزه الديني الخطير.

وعزز تلك الشكوى لهب آخر غير ذلك اللهب الذي كان يتراءى من كوة صومعته، ألا وهو اللهب الذي بدأ ينبعث من عينيه في المدة الأخيرة، وتهامس الكهان والخدام بتلك النظرات الملتهبة التي كان يضبط متلبسا بها وهو جالس وحده في بعض أرجاء الكنيسة.

ولم تظهر عليه هذه الأعراض الأخيرة إلا في الآونة التي بدأت فيها قصتنا هذه. بل أن بعض مرؤوسيه من الكهنة قد سمعوه أثناء صلاة القداس يهمس بعبارات بعيدة كل البعد عن نصوص الصلاة، وقد تقبضت أصابعه حتى أوشكت أظافره أن تغوص في صفحات الكتاب، وفي الوقت

نفسه زاد تشدده في رعاية الطقوس وتزمته مع جماعة المؤمنين والمؤمنات الذين يفزعون إليه للاعتراف أو للمشورة.

بل أنه زاد في تزمته على كل ما تعارف عليه الناس، فأصبح يلتزم الابتعاد عن جميع النساء فكأنه في فراره من ذلك الجنس عدو مبين. وإذا سمع خفيف ثوب نسائي يقترب منه غطى عينيه بطيلسانه. ومضى في تلك الخطة إلى حد أنه رفض السماح لابنة الملك بدخول الأجنحة الداخلية للكنيسة، وعارض المطران حين سمح لها بتلك الزيارة، ولما لم تسفر معارضته عن نجاح لزم صومعته طول مدة تلك الزيارة وأبى أن يكون في استقبال الأميرة الملكية.

ورفع إلى المطران تقريرا في تلك السنة أظهر فيه استياءه لزيادة عدد الغجريات في مدينة باريس في المدة الأخيرة، وطلب من المطران أن يصدر أمرا صريحا يحرم على الغجريات الرقص تحريما قاطعا في ساحة الاعتصاب التي تطل عليها الكنيسة، فلما لم يوافقه المطران، أكب على مراجعة القوانين القديمة كي يجمع النصوص التي تنصب على محاكمة المشعوذات والساحرات، وعلى الظروف التي تجيز إعدامهن حرقا إذا استعن في شعوذتهن بالمعيز خاصة.

فمن اليسير إذن أن نتصور أن الأسقف كلود فرولو وتابعه الأحدب كانا شخصين مكروهين من الناس ولاسيما سكان الكنيسة وجيرانها، وحين يخرج الأسقف وحده، أو متبوعا بالأحدب كانت الشفاه تتحرك باللعنات والشتائم.

محاكمة أحدب نوتردام

كان يعيش في سنة ١٤٨٢ رجل جدير بالعجب والحسد، هو النبيل روبير دستوتفيل، شيفالييه دي بين، وبارون ديفري وكونت سان أندري..

نعم. هذه كلها ألقاب هذا السيد المحظوظ، وهي كما ترى كثيرة لامعة. ولكن أكثر منها وألمع هي وظائفه واختصاصاته: يا وران جلالة الملك، ومدير شرطة عاصمة ملكه السعيد منذ سبعة عشر عاما. ومن اختصاصات هذا الكونت البارون الشيفالييه مدير الشرطة أن يرأس محكمة خاصة بجرائم الإخلال بالأمن. وما من رأس في هذه السنوات وصلت إلى السيد المحترم جلاد باريس إلا بعد أن مرت بهذا الكونت أولا، فهو المورد الوحيد لآلات التعذيب، وللمشنقة التي تنصب علنا في ميادين باريس.

وفي غداة عيد ٦ يناير، أي غداة انتخاب كازيمودو أميرا للبلهاء، سيق هذا المسكين كي يمثل أمام هذه المحكمة. وكان انعقاد المحكمة يعد حادثا مثيرا، يسرع إلى مشاهدته الممتعة جميع الفضوليين والمجان وأهل الفراغ من الباريسيين.

ففي صباح هذا اليوم بكر هؤلاء إلى قاعة المحكمة بدار "الشاتليه" الكبرى. ولعل القراء قد لاحظوا أن القضاة من قديم الأزل يختارون لعقد جلساتهم أياما يكون مزاجهم فيها منحرفا، لكي يكون ذلك أعون لهم على

التدقيق في محاسبة المذنبين والتشدد معهم. وانسب الخمر تكون قد أثرت في المعدة والكبد، والطعام الدسم يكون قد أتعب المصارين، والسهر والضجة تكون قد أتلفت الأعصاب، وبذلك تتم كل مقومات "العكننة" اللازمة لإقامة العدل بين الناس.

وقاعة محكمة "الشاتليه" صغيرة نسبيا، منخفضة السقف، وفي صدرها منصة فوقها مقعد كبير له مسندان، لجلوس سعادة مدير الشرطة الكونت دستوتفيل، ولكن هذا المقعد ظل شاغرا في هذا اليوم.

وكيف انعقدت الجلسة إذن بغير وجود القاضي؟

الواقع أننا نظلم عدالة الكونت إذا لم ننوه بمزية فيه، فقد كان لا يعلق سير إجراءات العدالة على حضوره، حتى لا تتعطل أركان الدولة. وهو في هذا النهار مخمور منذ أمس، فلم يستيقظ في وقت مناسب لرئاسة الجلسة، فناب عنه فيها وكلاؤه، وهم أقل منه تأثرا بالخمر.

وعدد هؤلاء الوكلاء ثلاثة: وكيل للشئون الجنائية، وآخر للشئون المدنية، وثالث للأحوال الخاصة. وقد رأس جلسة اليوم وكيله الجنائي الأستاذ "فلوريان".

والأستاذ فلوريان هذا رجل أصم. ولكن إياك أن تظن لحظة واحدة أن هذا الصمم الذي يحول دون سماعه أقوال المتهمين، يمكن أن يحول دون إصداره الحكم الرادع عليهم، ولا يمنع أيضا هذه الأحكام من أن تكون نهائية لا نقض لها ولا استئناف!

وللأستاذ فلوريان رأي وجيه في هذا الصدد: وهو أن القاضي الصالح هو الذي لا يسمع. لأن السمع حاسة، أي نافذة تطل على الدنيا. والنظر من النوافذ مشغلة للفكر تمنعه من الانحصار في معنى العدالة السامي. فالقاضي الأصم لا تصل إليه ضوضاء الجلسة وضجة الدنيا، فينصرف بحواسه جميعا إلى تحري العدالة وتوزيعها بالقسط بين الناس!

وقد قلنا لك أن زبائن الفرجة في هذه المحكمة معظمهم من المجان والمتبطلين. وقد علمنا أن جيهان– وهو شقيق الأسقف كلود فرولو– في مقدمة هؤلاء المجان. فلا غرو أن يكون في طليعة المبكرين لشهود هذه الجلسة.

ولم يكن جيهان يعلم أن كازيمودو سيحاكم ذلك اليوم، بل كان لا يعلم إطلاقا أنه معتقل. ولذلك شرع منذ أول الجلسة يعلق على التهم والمتهمين والأحكام تعليقات لاذعة عابرة، إلى أن نوديت قضيته، فدخل الجلسة موثقا بالحبال، وقد وقف إلى جواره آسره الهمام الضابط فيبوس دي شاتوبير بملابس التشريفة العسكرية، وراح يفتل شاربه في خيلاء.

وصاح جيهان متعجبا:

– انظروا أيها الرفاق! أليس هذا أميرنا الذي انتخبناه وكرمناه بالأمس؟ يا للأحدب المسكين!

ولم يكن الأحدث ثائرا، بل كان مستكينا صامتا كمن لا يبالي، وكل ما هناك أنه يرمق قيوده المتينة بنظرات يقدح منها الشرر.

ودس القاضي فلوريان رأسه بين الأوراق. وكان يفعل ذلك كلما نودي متهم جديد، كي يعرف اسم المتهم ومكانته الاجتماعية وصناعته ووصف تهمته، وهي معلومات أساسية لا غنى عنها قطعا للنطق بالحكم. ولا غنى عنها أيضا لحدس ما يمكن أن يجيب به المتهم حين توجه إليه هذه الأسئلة. وبذلك يتمكن القاضي الأصم من التظاهر بالسماع والإنصات.

ولما فرغ حضرة القاضي من الاطلاع على الأوراق، رفع رأسه من بين الوثائق، ومال به إلى ظهر المقعد حيث استقر هناك، ثم أغمض عينيه شأن من يريد الإنصات وحصر الذهن، فتمت له بذلك خاصة أخرى، وهي خاصة العمى!

وفي ذلك الوضع المهيب أنشأ القاضي يستجوب المتهم، دون أن ينظر إليه أو يسمعه:

– اسمك؟

ولم يسمع المتهم السؤال، لأنه أصم كما تعلم. ولكن القاضي أيضا أصم. وهو لا يعلم أن المتهم أصلا، فتركه برهة من الوقت قدر أنها كافية للإجابة، ثم قال:

– عظيم جدا. وعمرك؟

ولم يسمع كازيمودو طبعا، ولم يرد بشيء هذه المرة أيضا، وظن القاضي أنه أجاب، فهز رأسه علامة الفهم، ثم سأله:

– وصناعتك؟

ولم يجب كازيمودو، وشعر الناس بغرابة الموقف فتهامسوا، ولكن القاضي خال أن المتهم قد أجاب أيضا هذه المرة، فقال له:

– حسبك. أنت متهم بتعكير صفو الأمن، واختطاف امرأة، ومقاومة رجال جلالة الملك. فما قولك؟ مذنب أو غير مذنب؟

وصمت وهو يقدر أن المتهم يجيب، ثم صاح بعد قليل– ولم يكن كازيمودو قد نطق بحرف:

– اخرس. كفي ثرثرة! هل سجلت يا حضرة الكاتب أقوال المتهم؟

فضجت القاعة بالضحك، بما فيهم كاتب الجلسة نفسه.

وشعر كازيمودو بالضحك، وهو الذي تعود سخرية الناس، فظن أنهم يضحكون عليه هو، لشيء قاله القاضي، فهز كتفيه غير مكترث.

أما القاضي فحسب أن الناس ضحكوا لأن كازيمودو قال شيئا لاذعا أو مهينا له، ولاسيما لأنه رآه يهز كتفيه كالمستهزئ، فثارت ثائرته وصاح به:

– أيها المنكود! أتهين المحكمة؟ أتجرح وقارها؟ ألا تدري أنني أمثل سيادة الكونت دستوتفيل، رئيس شرطة باريس أيها الوغد؟.

وفي هذه اللحظة كان الكونت قد حضر، ودخل من باب حجرة المداولة الذي خلف المنصة، وسمع عبارة نائبه الأخيرة، فقال:

– كفي! سنحكم بأردع عقوبة على المتهم لإهانته وقار المحكمة: يجلد بالسياط علنا في ساحة الاعتصاب، ثم يترك عاريا بعد الجلد ساعة في الشمس..

وسجل كاتب الجلسة حكم القضاء العادل...

* * *

والآن نستميح القارئ أن نكلفه مشقة العودة معنا إلى ساحة الاعتصاب، تلك الساحة التي غادرناها بالأمس مع جرنجوار وهو يخرج لتعقب خطوات أزميرالدا.

الساعة الآن العاشرة صباحا. وكل شيء يدل على أن اليوم غداة يوم عيد، فالأرض قد تناثرت فوقها الخرق الممزقة والريش وبقع الشمع المنصهر من المشاعل، وفتاة المأدبة الشعبية التي مد خوانها في تلك الساحة كما تعلم أمس مساء.

ونتوجه إلى القارئ بعد أن يجول بعينيه في آفاق الميدان متأملا تلك الآثار، أن يوجه نظره إلى ذلك البناء العتيق الذي يشبه في طرازه العمائر الرومانية، وهو البيت المعروف باسم برج رولان. ويقوم ذلك البرج في

الركن الغربي مجاورا لرصيف نهر السين، وأمام هذا البرج شجرة باسقة، وبالقرب منها نافذة ضيقة محصنة بقضيبين متعارضين من الحديد.

وهذه النافذة ألضيقة هي المنفذ الوحيد للشمس والهواء إلى صومعة أو زنزانة صغيرة ليس لها باب، قائمة بمستوى الأرض، محفورة حفرا في جدار القصر السميك.

وتسود هذه الزنزانة سحابة من الصمت أشبه بصمت القبور، ويبدو ذلك الصمت على أشده بالقياس إلى الضجة العظيمة التي تنبعث من الساحة التي تطل عليها.

وقد اشتهرت هذه الزنزانة في باريس لثلاثة قرون خلت، منذ أمرت مدام رولان ربة ذلك البرج بحفر هذه الصومعة في الجدار، ثم لزمتها إلى آخر حياتها حزنا على والدها الذي مات في الحروب الصليبية، وأمرت بأن يسد الباب بالبناء، وأن تظل النافذة بغير مصراع فلا يقيها واق من أحوال الجو أن صيفا وأن شتاء، وأن نهارا وأن مساء، فتقوم يومها صائمة ضارعة ثم ترقد ليلها على التراب، ولا تتوسد تحت رأسها شيئا ولو كان قطعة من حجر، ولا ترتدي من الثياب إلا غرارة سوداء. أما سائر القصر، وما كانت تمتلك من ثابت ومنقول فتركته نهبا للسائل والمحروم وابن السبيل، ولا معاش لها إلا مما يجود عليها به المارة صدقة لا تسألهم إياها. وبهذا أصبحت تتقبل الإحسان بعد أن كانت توليه. وظلت تنتظر راحة الموت على هذا النحو عشرين سنة ونيفا، فلما حضرها الموت وهبت هذا الحجر هبة أبدية للمحزونات المفجوعات من نساء باريس.

وقد أقامت مدينة باريس مصلى صغيرا إلى جوار النافذة، تحت الشجرة الباسقة حتى إذا وقف الناس للصلاة، تذكروا الصدقة والزكاة، فلم تحرم تلك التي دفنت نفسها في هذه الصومعة حية من شيء يعصمها من الموت جوعا.

ولا يذكر التاريخ أن تلك الصومعة في برج رولان أقفزت يوما من أم ثكلى أو أرملة أو عانس، وإذا أحب القارئ أن يعرف من هي التي كانت تسكنها في زمن قصتنا هذه، فما عليه إلا أن يتبع ثلاث نساء ثرثارات وجهتهن ذلك الجحر بالذات، وأن يصغى لحديثهن:

– انظرا إلى هذا الجمع عند طرف القنطرة، لابد أن هناك ما يتفرجون عليه.

– أني أسمع ضربا على الدف. وأحسب أن هذه الغجرية أزميرالدا تعرض ألعابها هي وعنزتها الصغيرة، فحثي الخطى يا مايت أنت وطفلك. فقد شاء لك الحظ أن ترى أطراف ملاهي باريس التي لا نظير لها في قريتك.

– غجرية؟ أعوذ بالله منها. أنها قد تسرق طفلي.

وأسرعت القروية تجري نحو الساحة بعيدا عن القنطرة، تاركة وراءها صاحبتيها الباريسيتين اللتين أدركتاها وهما تضحكان منها، ثم قالت إحداهما:

– الغجرية تسرق طفلك؟ وماذا تصنع به؟

فقالت الباريسية الأخرى:

– خرافة. ولكن العجب كل العجب أن الأخت جوديل، ناسكة البرج، تعتقد في الغجر هذه العقيدة نفسها.

– معها حق. وهي تستحق أكثر من الكعكة التي صنعتها لها إذن.

– أما هي فناسكة مجذوبة لا يدري أحد سر اعتقادها هذا. ولكن ما سر فزعك أنت من الغجر يا مايت؟

– أنني لا أحب أن يحدث لي مثل ما أصاب المسكينة باكت.

– يبدو يا عزيزتي أنك ستحدثيننا بقصة شائقة.

– أنها شائقة فعلا، وإن كانت مؤلمة، فاعلما إذن أن باكت كانت منذ ثمانية عشر عاما شابة جميلة في مثل سني يومئذ، أي كان عمرها ثمانية عشر عاما. وقد مات أبوها عنها وهي صغيرة جدا، فكفلتها أمها. وكانت تلك الأم بسيطة التفكير لسوء الحظ فلم تعلم باكت شيئا سوى أشغال الإبرة الساذجة. فشبت الفتاة فقيرة. وكانت الأم والابنة تسكنان على شاطئ النهر في بلدة ريمس، وكانت باكت تعد أجمل فتيات البلدة، ولكنها أيضا كانت من أفقرهن، وكان شتاء سنة ١٤٦١ قارصا، فاجتمع البرد والجوع والجمال الباهر على الفتاة فزلت، ثم شوهدت في الكنيسة يوم الأحد وفوق صدرها صليب ذهبي كبير، ففهمنا جميعا وتحسرنا لسقوط

باكت وهي في الخامسة عشرة من عمرها. وكان أول بختها فيكونت، ثم ضابط في السواري، ثم انحدرت إلى حلاق ولي العهد، ثم إلى كبير طهاة الملك، إلى أن حازها أخيرا غليوم راسين عازف الكمان. وفي سنة ١٤٦١- أي منذ ستة عشر عاما- وضعت باكت طفلة، ففرحت بها كثيرا لأنها كانت مشتاقة إلى طفل يسليها على شقائها. فجمعت حبها كله في هذه الفتاة، ورأت فيها سلوتها الوحيدة بعد أن ذبل حسنها وهي في سن العشرين لحياة الرذيلة التي كانت تحياها، فأصبحت محاسنها لا تدر عليها أكثر مما كانت تدره عليها إبرة التطريز. ونكبت فوق هذا بوفاة أمها. فكأن هذه الطفلة كانت بصيص الرجاء الوحيد في حياتها. بل لقد عاد جمالها إلى الإشراق بعد ولادتها، فراجت سوقها، وتحسنت معيشتها ورجعت إلى العناية بمظهرها فكانت تصنع ما يفيض عن ثيابها ثيابا جميلة مطرزة لابنتها، وطرزت لها بيدها حذاءين من الحرير ولم يظفر الملك لويس بمثلهما، فلم تر عين أبدع منهما، ولا يزيد طولهما عن طول إبهامي هذا. ولولا أن تريا قدمي الفتاة خارجتين منهما لما صدقتما أنهما كانتا فيهما فعلا.

– وهل كانت الفتاة تستحق هذا كله؟

– لقد رأيت أنييس وعمرها لا يزيد على أربعة أشهر، فكانت رائعة الجمال. فعيناها أوسع من فمها، وشعرها في سواد الليل، ولا شك أنها لو عاشت إلى سن السادسة عشرة لصارت فتنة. فلا عجب أن تزداد أمها بها تعلقا يوما بعد يوم، حتى كادت تصاب بالهوس.

– أنها قصة ظريفة، ولكن أي علاقة بينها وبين خوفك من الغجر؟

– على رسلك. وفي ذات يوم هبطت بلدة ريمس جماعة من الغجر، كانوا يجولون الريف المجاور مستجدين أو راقصين. وكانت وجوههم بشعة، ولاسيما النساء منهم وإن كان يقال أنهم مروا بروما حيث اعترفوا بآثامهم للبابا فسمح لهم بدخول حظيرة التوبة، بشرط أن يكفروا عن خطاياهم السابقة بالتجوال في أوربا سبع سنوات لا تمس جنوبهم فيها فراشا، ولا يغتسلون فيها بماء. ولهذا كانت لهم ريح نتنة وسحن قذرة عبث بها الشيطان، ذلك الشيطان الذي أعطاهم سلطان العرافة والتنجيم وقراءة الكف، فكان الكثيرون والكثيرات يقصدونهم لاستطلاع الغيب. وخطر لبعض الأمهات أن يعرضن راحات أيدي أبنائهن وبناتهن على هؤلاء الغجر، ورحن يتباهين بما قيل لهن، فهذه سيكون ابنها إمبراطورا في أرمينيا وأخرى سيكون ابنها بابا روما وثالثة سيكون ابنها قائدا. فعز على باكت ألا تقرأ العرافات طالع ابنتها، فحملتها إلى مخيم الغجر في أحسن زينتها، فأعجبوا كثيرا بجمالها وبحذائها، وكانت آنييس في ذلك الوقت لم تتم عامها الأول. وتنبأ العراف لها أنها ستكون ملكة، فانصرفت باكت بابنتها والفرح يكاد يذهب بعقلها، وفي اليوم التالي انتهزت فرصة نعاس الفتاة وتسللت خارجة فجذبت الباب وراءها دون أن توصده وأسرعت إلى جارة لها تخبرها بما قاله العراف. ولما عادت وجدت البيت خاليا وليس لآنييس أثر ما عدا فردة واحدة من فردتي الحذاء الجميلتين. فخرجت تصرخ كالمجنونة حتى اجتمع الخلق. وكان أول ما فكر فيه الناس هو الهجوم على مخيم الغجر وتفتيشه، ولكنهم وجدوهم قد رحلوا. فلما رجعت إلى البيت يائسة سمعت

فيه بكاء طفل صغير، فكادت تجن من الفرح، فلما اقتربت من الفراش رأت– ويا هول ما رأت– مخلوقا فظيعا مشوها، له عين واحدة وحدبة بين كتفيه، فذهب عقل المسكينة، وبكى رحمة لها جميع الناس وهم يرونها تقطع شعرها وتهيم على وجهها صائحة: "بنتي! بنتي الصغيرة! أين أنت؟" بل أني لأشعر بالدمع يجول في مقلتي حتى اليوم كلما تذكرت صوتها الباكي ونبرتها المولولة.

– الآن لا نعجب لفزعك من الغجر. وما بقية خبرها؟

– لقد جنت ورحلت هائمة على وجهها إلى باريس ثم فقدنا أثرها.

– والطفل؟

– أي طفل؟

– ذلك المسخ الذي وضعه الغجر في الفراش بدلا من آنييس..

– لقد عطف عليه مطران باريس وعمده وعرضه على سلم نوتردام.

* * *

وعندئذ كان النساء الثلاث قد وصلن إلى ساحة الاعتصاب. فقالت إحدى الباريسيتين لصاحبتيها:

– قفا هنا وسأنظر أنا من النافذة وحدي حتى لا تروع الأخت جوديل، فهي زاهدة ذهبت العبادة بوعيها وكثيرا ما تثور لأتفه الأسباب.

وهي تعرفني إلى حد ما، فدعاني أنا أتحدث إليها. وقفا في المصلى إلى أن أشير إليكما فتتقدمان للتبرك منها.

وبعد لحظات أشارت إلى صاحبتيها فتقدمتا لتبصرا امرأة متغضنة الوجه كأنها هيكل عظيم، شعرها كالشوط وأظافرها طويلة وثيابها أسمال. فحسبتها لأول مرة تمثالا لفرط جمودها. أما نظراتها فشاردة شرود مسلوبات العقل. فسألت القروية همسا:

– ماذا تسمون هذه المرأة؟

– كل باريس تسميها الأخت جوديل.

– وأنا أسميها باكت.

– ماذا تعنين؟

– أنها هي المسكينة التي رويت لكما قصتها.

وفي هذه اللحظة بكى الطفل الذي تحمله مابيت، فإذا بالتمثال البشري القائم في الصومعة وقد دبت فيه الحياة، فمد يده نحو الطفل، وومضت عيناه وهتف:

– خذن هذا الطفل بعيدا. أخفينه! فالغجر سيمرون من هنا! ثم سقطت المرأة مغشيا عليها، فارتطمت جبهتها بالأرض كأنها قطعة من الصخر، ولكنها لم تشعر بها، إلى أن أفاقت بعد لحظات فنهضت وفي يدها

فردة حذاء مطرزة صغيرة جدا راحت تقبلها وتمر بها على وجهها وعينيها. وعندئذ جعلت مايت تناديها:

– باكت! ألا تذكرينني يا باكت؟

فانتصبت الناسكة جوديل وتصلبت أعضاؤها، ودارت بعينيها فيما حولها، ولكن يبدو أنها لم تكن ترى شيئا، لأنها صاحت بعد قليل وهي تضحك بصوت رهيب:

– هي المرأة الغجرية تناديني!

وفي هذه اللحظة مر من أمام النافذة موكب صغير، فمدت الناسكة ذراعيها وأنشأت تصيح بصوت مختلج:

– أهذه أنت أيضا أيتها الغجرية الملعونة؟ أنت التي تناديني يا سارقة الأطفال.. عليك اللعنة! عليك اللعنة!

* * *

فاهت الناسكة جوديل بهذه الكلمات عندما اتصل مشهدان منفصلان، ظلا يتقاربان على افتراق مسرحيهما إلى أن تم امتزاجهما في مشهد واحد، أما أول المشهدين، فهو ذلك الذي رويناه فيما سبق عن ساكنة برج رولان وزائراتها الثلاث. وأما المشهد الآخر فكان ذلك الجمع المحتشد في ساحة الاعتصاب.

فلماذا احتشد الناس ذلك الاحتشاد؟

لقد كان كافيا لتجمعهم أن يروا أربعة جنود من رجال شرطة باريس واقفين منذ الضحى في تلك الساحة، عند الموضع المعد لتنفيذ الأحكام. فقد كان أهل باريس يعلمون جيداً أن وقوف هؤلاء الشرطة يعني أن مجرما سوف يشنق، أو على الأقل سيعذب أو يجلد بالسياط علنا، وذلك على كل حال منظر يحب الغوغاء أن يشهدوه، لما فيه من تسلية وحشية توافق غرائزهم.

وبلغ من شدة الزحام أن كان الجنود يضطرون إلى تفريقهم كي لا يطغوا على موضع التنفيذ بتزاحمهم. وطال الانتظار، إلى أن وصل المتهم المذنب، مربوطا إلى مؤخرة عربة. وما أن رفع إلى المنصة وتمكن من في الساحة من رؤيته، حتى تصايح الناس فكان لصوتهم دوي شديد، وتعالت ضحكاتهم وهتافاتهم إلى أعنان السماء.. ذلك أنهم عرفوا في هذا المذنب المشدود الوثاق: كازيمودو.

والحق أن تقلبات الأحوال بين أمس واليوم كانت مذهلة له في مفارقاتها: فهو يوشك أن يجلد علنا بالسياط في ذلك المكان نفسه الذي اجتازه موكبه ليلة أمس على ضوء المشاعل محمولا على الأعناق بين الهتاف والتهليل، وقد تقلد طيلسانا أرجوانيا وصليبا مذهبا.. أما الآن فإنه يرى أمام عينيه آلة التعذيب التي سيقيد إليها حين يجلد، وهي عجلة موازية للأرض، تدور وهو يجلد كي يرى كل من في الميدان وجهه وظهره الممزق بالسياط.

ونهض مأمور الأحكام الموفد من قبل رئيس الشرطة فتلا على الناس الحكم والتهمة بصوت جهوري، فإذا الصيحات تتعالى من جديد... وكيف لا يضحكون من هذا الأحدب الذي يتصدى لمغزلة الحسان؟

أما كازيمودو نفسه فلم يظهر عليه أي أثر للمقاومة أو الغضب، حتى ولو بتقطيب جبينه، والحق أن كل مقاومة– يفرض أنه فكر في شيء من ذلك– كانت لا طائل تحتها: فالحبال والسلاسل التي ربطوه بها كانت غائرة في لحمه حتى لقد انبثق الدم من مواضعها. كما أن ذهول الدهشة كان يعقل إرادته ويشل تفكيره. ولهذا كان وجهه خلوا من أي انفعال أو تعبير، ما عدا ما يرتسم على وجوه أهل البلاهة والمعتوهين..

وكان جيهان وأصحابه قد حضروا محاكمته في قصر الشاتليه كما ذكرنا، فخرجوا في موكبه وتبعوه إلى ساحة الاعتصاب، ووقفوا بين الناس يتفرجون، وكان جيهان يعلم أن كازيمودو أصم، ولكنه الآن أوشك أن يظن به العمى.

وأرغمه حراسه على الركوع على ركبتيه، ثم كشفوا عن صدره وظهره إلى خاصرته، فلم يبد أي مقاومة على الإطلاق، ثم قيدوه بسلاسل وأحزمة جلدية أخرى، فتركهم يصنعون به ذلك كله وكأنه يحدث لشخص سواه. وكل ما هناك أنه كان يتنفس في الحين بعد الحين تنفسا عميقا، فكأنه عجل مال الجزار بعنقه تمهيدا للذبح.

ولما رآه الناس عاريا أمامهم ضجوا بالضحك، فقد تجردت أمام ناظرهم حدبته كأنها سنام البعير، وصدره البارز، وكتفاه المكسوان بالشعر..

وفي تلك الأثناء كان رجل ربعة القوام، يرتدي كسوة بنية اللون، يصعد منصة التنفيذ بخطى ثابتة متمهلة وما أن رآه الناس حتى سكتوا وكأن على رؤوسهم الطير.. ثم أخذوا يتهامسون قائلين:

– هذا بيرا تورتيرو، جلاد محكمة الشاتليه الرسمي..

وقد بدأ تورتيرو "العملية"، بأن وضع على زاوية المنصة ساعة كبيرة من الزجاج، مكونة من فنجانين متلاصقين من قعرهما وبينهما خرق دقيق، والفنجان العلوي مملوء برمل أحمر اللون ينساب من الثقب إلى الفنجان السفلي. ثم خلع سترته، فظهر في قبضة يده سوط العذاب ذو الألسنة المتعددة، والعقد، وحلقات المعدن.

وبيده اليسرى شمر كم قميصه الأيمن إلى الكوع، وعندئذ شق هذا الصمت الرهيب صوت جيهان المهذار:

– تعالوا انظروا أيها السيدات والسادة! أنهم سيجلدون الآن الأستاذ كازيمودو، قارع أجراس أخي الأسقف... إن هذا الأستاذ ذو بنية على الطراز الشرقي: فظهره على شكل قبة ضريح، وساقاه عمودان متعانقان!..

وضحك الناس، ولاسيما الغلمان والفتيات..

وأخيرا دق الجلاد الأرض بقدمه، فأخذت العجلة في الدوران، فاضطربت ساقا كازيمودو أمام هذه المفاجأة الجديدة، ثم ظهرت على وجهه علائم الدهشة بجلاء أشد، الأمر الذي راق للناس كثيرا، فصفقوا وضحكوا كثيرا...

وفي اللحظة التي صار كازيمودو أثناء دورانه في وضع مناسب، وقد واجهت حدبته الجلاد، رفع تورتيرو يده بالسوط، فصفرت في الفضاء ألسنته وشعبه صفيرا أشبه بفحيح الأفاعي، ثم هبطت بين كتفي الأحدب المسكين.

ووثب كازيمودو، كمن أفاق من حلمه فجأة.. وبدأ المنكود يفهم ما يراد به، وتشنجت عضلات وجهه تشنجا فظيعا لشدة الألم، بيد أنه لم ينبس ببنت شفة، إلا أنه مال برأسه الضخم ذات اليمين وذات اليسار، وإلى الخلف، وإلى قدام، كما يفعل الثور حين تلدغ بطنه نحلة!

وتلت الضربة الأولى ضربة تالية، ثم ثالثة، ثم رابعة وخامسة، وهلم جرا بغير انقطاع، وبدأ الدم يتفصد من مواضع السياط التي كانت آثارها الزرقاء والحمراء تغطي ظهره العريض المشوه، فلما تجدد الجلد، جعلت شعاب السوط تنثر قطرات من ذلك الدم على المشاهدين.

وبدا في ذات لحظة أن المسكين يفكر في المقاومة، فنفرت عروقه وبذل جهد الجبابرة حقا، ولكن القيود كانت متينة جدا فلم تتمزق.

فاستكان، وأغمض عينيه– بل الأحرى أن نقول أغمض عينه الواحدة الوحيدة– وسقطت رأسه فوق صدره، وبدا كأنه قد فارق الحياة.

ومنذ تلك اللحظة لم تبدر منه حركة تدل على الحياة، مع أن عملية الجلد استمرت على حالها. وأخيرا صعد نائب الأحكام المنصة وأشار بعصاه السوداء إلى الساعة، فكف الجلاد يده، ثم وقفت العجلة الدوارة...

وعندئذ، وعندئذ فقط، فتح كازيمودو عينه..

لقد انتهى الجلد.. وآية ذلك أن مساعدي الجلاد راحا يغسلان كتفي المذنب الداميتين، ثم دهناهما بنوع من المراهم، ثم طرحا فوق ظهره قطعة من القماش الأصفر.

أما الجلاد نفسه، فكان يزيل عن سوطه آثار الدماء.. بأن يتركها تقطر على الأرض.

ولم تكن عقوبة كازيمودو قد انتهت عند هذا الحد، فقد بقي عليه أن يظل معلقا معرضا لأنظار الناس في الساحة ساعة أخرى كاملة، فقلب الجلاد الساعة الرملية، كي يصير الفنجان الأسفل هو الأعلى.. حتى إذا فرغ من الرمل، كان ذلك إيذانا بانتهاء الساعة!

وكانت هذه الساعة هي السلوة الإيجابية التي يستمتع بها المتفرجون: فهذا يضحك، وهذا يقذفه بالنكات، وذاك يحصبه بالحصى.

ولئن كان كازيمودو أصم، وأعور، إلا أن عينه الواحدة كانت قوية الإبصار، فرأى حركات الضحك والشماتة والسخرية. ولم يظهر اكتراثا أول الأمر، على أن إصابات الحصى جعلته يتقزز ويرمي الناس بنظرات يتطاير منها الشرر.. ولكن الناس لم يرتعدوا، وكانوا بالأمس فقط يفرقون رعبا من نظرة أهون من هذه وهو طليق.. أما الآن فهو مشدود الوثاق.

وانطوى كازيمودو على قنوط وألم وغل، ثم استكان، وإن كان لا يدري متى ينتهي عذابه، لأنه كما علمنا لم يفهم تهمته ولم يسمع الحكم عليه لصممه.

ومن واجبنا أن نذكر في هذا المقام أن الأحدب لم تظهر عليه أي أعراض تدل على الخزي أو الخجل، فهو أبعد عن المجتمع وأدنى إلى الفطرة والطبيعة من أن يحس خزيا أو خجلا...

ثم هل يمكن لمن قسا عليه القضاء فجعله بهذه الدمامة المثالية أن يستشعر شيئا يخجله، وقد حمل وجهه القبيح وعرضه على الناس وواجههم به منذ خرج إلى النور؟

كل ما كان يشعر به المسكين هو الغضب والغيظ والحقد، فقد تراكمت هذه المشاعر حتى غدت سحابة ظللت وجهه، ونارا اندلعت من مقلته..

ولكن هذه السحابة لم تثبت حيث هي، إذ أقبل في هذه اللحظة قسيس راكب على بغلة، وما أن لمح كازيمودو البغلة والقسيس حتى خفت

حدته، بل أشرق وجهه بابتسامة حنون جعلت تزداد كلما اقترب راكب البغلة المتشح بالسواد، وكأنما رأى فيه منقذا ومخلصا لا يخيب.

ومن عجب ومن أسف أن القسيس ما أن صار قبالة المنصة حتى غض طرفه متجاهلا، ثم لكز بغلته وانطلق مسرعا، كأنه خجل أن يتلقى تحية هذا المنكود علنا.

وكان راكب البغلة هو الأب كلود فرولو، فأحدث هذا التصرف أثرا عميقا في نفس الأحدب، وحلت محل الابتسامة سحابة أحلك من سابقتها.. وظهرت على وجهه المرارة واضحة.

ومضت فترة أخرى، وإذا به يتململ في قيوده من جديد، حتى لقد نفرت كل عروقه، وخيف على القيود أن تتمزق، ثم صاح بصوت أجش عريض، كأنه خوار ثور غاضب:

– جرعة ماء..

وكان نداؤه أليما، حريا أن يحرك القلوب الصلدة، لكن قلوب أهل باريس لم تتحرك، بل استثار ذلك الصوت مرحهم فضحكوا وتمايلوا كالسكارى، والمسكين يرغي ويتناثر الزبد من شدقيه فيغطي ذقنه ويتساقط على الأرض.

وتكررت الصيحة الأليمة، فتكرر الضحك. بل أن الشاب الذي كان كازيمودو قد قذف به بعيدا في قاعة قصر العدل بعيد انتخابه أميرا للبلهاء تناول حجرا كبيرا فقذفه به وهو يصيح:

– اشرب هذا أيها الوغد الأصم، فهو سداد دينك في ذمتي!

وصاحت عجوز عرجاء وهي ترميه بطوبة:

– واشرب هذه أيضا أيها الساحر.. عسى أن تكف عن إلقاء أسحارك علينا من قمة أبراج نوتردام أيها الشيطان الزنيم..

وصاح رجل كهل وهو يضربه بقلة مكسورة:

– واشرب من هذه أيضا أيها الشرير. لقد كان مرورك من أمام زوجتي ذات مرة كافيا لأن تلد طفلا له رأسان!

وصاح شيخ من الواقفين عندئذ:

– ومروره أمام هرتي مرة واحدة أولدها قطة بست أرجل!

وتكرر صياح كازيمودو للمرة الثالثة:

– جرعة ماء!

وعندئذ شقت الصفوف المتراصة فتاة تحمل دفا صغيرا، وتتبعها عنزة صغيرة مذهبة القرنين والأظلاف، فلما رآها كازيمودو تألقت عينه.. فقد كانت هي الفتاة الغجرية التي حاول أمس اختطافها وبسبب ذلك عوقب هذا العقاب.

ولم يرتب لحظة واحدة في أنها جاءت اليوم كي تنتقم هي أيضا، فتقذفه بشيء.. ورآها فعلا تصعد درجات المنصة في خفة ورشاقة، فلو أن نظراته النارية تجسمت تجسما ماديا، لكان ذلك كافيا لإحراقها وتذريتها رمادا قبل أن تصل إلى قمة المنصة.

ومن غير أن تنبس بكلمة، اقتربت من فريستها التي تنتظرها عاجزة عن الفرار، ثم حلت من حزامها زمزمية ورفعتها إلى شفتيه الجافتين.

وعندئذ ترقرقت في تلك العين الواحدة دمعة كبيرة ثم تدحرجت فوق وجهه الدميم المتغضن.. ولعلها أول دمعة ذرفها في حياته...

ونسى المسكين أن يشرب، فزمت شفتيها ورفعت عنق الإناء إلى فمه فعب منه عبا، حتى إذا ارتوى مط شفتيه السوداويين كي يقبل اليد التي أنقذته، بيد أن الفتاة جذبت يدها بسرعة، شأن الطفل الذي يخشى أن يعضه كلب ضخم، فقد تذكرت ما فعله بها في الليلة الماضية.

ورمقها الأحدب المسكين بنظرة حزينة تفيض عتابا وشكوى.

وتصايح الناس معجبين بذلك الجمال النبيل...

وفي هذه اللحظة بالذات رأت الناسكة جوديل ساكنة برج رولان الفتاة، وصاحت فيها صيحتها المنكرة:

– أيتها الغجرية.. عليك اللعنة!

لا تؤتمن عنزة على سرّ

وانقضت بضعة أسابيع. فنحن الآن في أوائل شهر مارس. وقد انحدرت الشمس عن كبد السماء جانحة إلى الغروب، فسقطت أشعتها سقوطا مباشرا على واجهة كنيسة نوتردام، فأبرزت تهاويل تلك الصور المنحوتة في صخرها، وذهبت نافذة الكنيسة الوسطى، فكأن انعكاس الأشعة الحمراء على زجاجها عين اتقدت بنوازع الغضب والشر..

وفي هذه الساعة التي واجهت الشمس فيها الكنيسة الكبرى ذات البنيان الشامخ، كانت في مقابلها أيضا في الطرف الآخر من ساحة الاعتصاب شرفة صخرية تبرز فوق واجهة قصر مبني على الطراز القوطي، ويدل مظهره على الغنى. وفي هذه الشرفة جلست بضع فتيات حسناوات يتحادثن ويضحكن بكل ما في قدودهن المياسة من تفتح للحياة وحيوية شباب. وكانت زينتهن وثيابهن تنبي عن اليسار وعن انتسابهن إلى بيوت رفيعة العماد شريفة الحسب والنسب واسعة الثراء.

وكانت واسطة العقد من هذه الباقة من الحسن والرشاقة والأناقة الآنسة فلور دي ليس، ابنة صاحب هذا القصر المنيف. وأما الفتيات فأتراب لها وقريبات جئن لزيارتها. وكانت مجموعتهن تحتل الشرفة والحجرة المفضية إليها، فالجالسات منهن في الحجرة قد افترشن حشيات من

المخمل الهولندي مذهبة الأطراف، والجالسات في الشرفة تحتهن مقاعد مستديرة من خشب البلوط مزوقة بصور منحوتة تمثل أفانين الزهر، وفي حجر كل واحدة منهن قطعة كبيرة من النسيج تطرزها، ففتيات الأسر في ذلك العهد لابد لهن من شغل أيديهن بشيء من أشغال الإبرة الدقيقة.

وكن جميعا يتحدثن همسا وبصوت ناعم تقطعه الضحكات اليسيرة، على تلك الصورة التي تعهد في حديث الفتيات كلما كان على مقربة منهن شاب.

فمن هو هذا الشاب؟

أن هذا الشاب هو فيبوس دي ساتوبير الذي يرجع إليه الفضل في تأنق الفتيات في حركاتهن ونعومة صوتهن ومياسة قدودهن، كأن كل واحدة منهن تريد أن تستحوذ دون الأخريات على إعجابه، ولم يكن يبدو عليه أنه يأبه كثيرا لهاتيك الفتيات جميعا، لأنه كان مشغولا معظم الوقت في تلميع مقبض حزامه بجلد قفازه، وهو جالس إلى جوار ربة البيت الكونتس والدة فلور دي ليس في الحجرة الداخلية فوق أريكة كبيرة.

وكانت الأم تتحدث إليه بصوت خفيض، وكان الشاب يرد عليها في أدب يبدو عليه التكلف والضجر المكتوم. ويبدو من ابتسامات الكونتس وإشاراتها نحو ابنتها فلور دي ليس أثناء حديثها مع الكابتن، أن تلك الأحاديث كانت بمثابة إغراء للفتى على التودد إلى الفتاة، فقد كان المفهوم أن زواجا سيعقد بينهما في المستقبل القريب. وكان الظاهر من سيماء

الضابط أن الحب لم يكن مستوليا على قلبه في هذه المرحلة من العلاقة بينهما، فاضطرت الكونتس أن تطري له محاسن ابنتها:

– انظر يا ابن العم. انظر إليها. انظر كيف تتحرك وتخطر

– فعلا

ثم يعود إلى صمته وشروده، فلا تمهله إلا قليلا ثم تميل على أذنه:

– أرأيت أوضأ من وجه خطيبتك في حياتك؟

– أوه. كلا

– أرأيت أكمل من قدها واعتدالها؟

– طبعا كلا

– أرأيت أكمل من يديها وأوقع في النفس؟

– أبدا أبدا..

– وهذا العنق الذي كأنه كوز من الفضة؟

– هو فعلا كذلك

– آه يا ابن العم! كم أحسدك أحيانا على أنك رجل وأنك ستتمتع بكل هذه المحاسن النادرة يوما أرجو أن يكون قريبا

– أوه!

– قل لي أيها الشيطان الصغير، أليست فلور دي ليس حلوة شهية؟ ألست بربك مغرما بها صبا؟ لا تكذب!

– طبعا بكل تأكيد..

فضربت كتفه من الخلف بطرف كتفها وقالت:

– قم إذن وكلمها

– أكلمها..

– قل لها شيئا لطيفا يجبر خاطرها، فإني أراك قد غدوت في العهد الأخير كثير الخجل والحياء، وما عهدناك كذلك يا ابن العم..

ونبادر نحن من جانبنا فنؤكد للقراء أننا نحن أيضا من رأى الكونتس في أن حضرة الضابط والهمام لم يكن يوما ممن اشتهروا بالنسك والزهادة ولا بالخجل والحياء، فقام يحاول جهد إمكانه أن يدفع عن نفسه هذه الوصمة. بيد أن حديثه إليها جاء سخيفا مبتسرا خيب آمال الفتاة التي كانت شديدة التعلق بقريبها الوسيم.

– ما هذا الذي بيدك يا ابنة العم الجميلة؟

– شيء من التطريز يا ابن العم الجميل

– ولأي غرض تطرزينه؟

– ليكون سترا لهيكل الدير في سان أنطوان.

وساد الصمت بعد ذلك، وكأن جعبة ابن العم الجميل فرغت فلم يبق فيها كلام يجاذبها به أطراف الحديث، فلما طال الصمت سألته:

– أهذا كل ما أردت أن تقوله لي؟

وفي هذه اللحظة كانت الكونتس الأم ترمقهما وهي جالسة فوق أريكتها بالداخل، وقد ملأت الفرحة عينيها وتجدد الحنين إلى الشباب في قلبها وهمست تحدث نفسها:

– أنهما لوحة رائعة للصبابة والولع!

أما الصب المولع فكان في هذه اللحظة ينبش أركان رأسه باحثا عن شيء يقوله حتى لا يخيب رجاء خطيبته بنت العم الجميلة، وأخيرا تنهد وقال:

– أنه فعلا تطريز رائع

وشاء الله له أن يخرج من هذا المأزق، إذ صرخت إحدى صواحب فلور دي ليس، وكانت تطل من فوق سياج الشرفة الصخري، قائلة:

– انظري يا عزيزتي إلى هذه الراقصة الحسناء التي تعرض رقصاتها الرائعة في الشارع، وتعزف على الدف وسط هؤلاء الرعاع.

– أنها ولا شك فتاة من هؤلاء الغجر.

ولكن بقية الفتيات تصايحن وهن يسرعن إلى الشرفة:

– بل هيا نتفرج، هيا نشاهدها.

فتبعتهن فلور دي ليس على مضض، لأن قلبها كان منقبضا لما لمسته من فتور خطيبها، فتنفس الخطيب الصعداء، ثم اتجه إلى أقصى الحجرة فجلس وحيدا يفكر في هذه الخطبة التي لم تعد تستهويه مثل ذي قبل.

ولم تدم وحدته طويلا، فقد استدارت إليه فلور دي ليس فجأة وقالت له:

– يا ابن العم الجميل. ألم تحدثنا منذ أسابيع عن فتاة غجرية تدخلت ذات ليلة فأنقذتها من براثن حفنة من اللصوص كانوا يهمون باختطافها؟

– أظن ذلك يا بنت العم الجميلة

– إذن ربما كانت هي هذه الفتاة التي ترقص في الميدان. فتعال وانظر، – فربما كانت هي يا ابن العم الجميل فيبوس.

وكان ظاهرا أنها تريد مصالحته والتقرب إليه بأي شكل، فهي علة تعللت بها كي تدنيه منها. فنهض فيبوس دي شاتوبير واتجه إلى الشرفة في خطى وئيدة، فوضعت فلور دي ليس يدها على ذراعه وقالت بحنان ورقة:

– انظر. أنها ترقص هناك وسط حلقة من الجماهير، أهذه هي غجريتك؟

فنظر فيبوس مليا ثم قال:

– نعم. فإني أعرفها بعنزتها

وفي هذه اللحظة رفعت إحدى الفتيات وجهها إلى قمة الكنيسة ثم صاحت:

– من هذا الرجل الذي يطل من هناك؟

فرفعت الفتيات جميعا أبصارهن، فإذا رجل يطل من قمة البرج الشمالي وقد ارتدى ثياب القساوسة، واعتمد ذقنه بين كفيه. وكان جامدا شاخص البصر إلى الميدان. فكأنه تمثال من تماثيل كثيرة تزين واجهة الكنيسة، بل أن من يعرف طبائع الحيوان حرى أن يرى في جموده شبيها بجمود القط الوحشي وقد اكتشف عشا للعصافير، فهو يتربص الفرص لينتقض عليه. فعرفته فلور دي ليس فقالت:

– أنه الأسقف كلود فرولو

– وماله يرقب الغجرية هكذا؟

– فلتحذر هذه الغجرية، فإن هذا الأسقف لا يحب الغجر

والتفتت فلور دي ليس إلى خطيبها فجأة وقالت له:

– يا ابن العم فيبوس. ما دمت تعرف هذه الغجرية، فنادها، كي نتفرج عليها هنا، ففي ذلك ترويح عنا.

فصفقت الفتيات جميعا، ولكن فيبوس قال:

– أنها لا تستحق كل هذا الاهتمام. وأحسبها قد نسيتني. وأما من ناحيتي لا أعرف اسمها.. ومع ذلك فما دامت هذه رغبتكن...

ثم أطل من سور الشرفة وراح يناديها قائلا:

– يا فتاة! يا بنت!

وكانت الراقصة في هذه اللحظة قد كفت عن الرقص، فرفعت رأسها إلى مصدر الصوت فاستقرت عيناها اللامعتان على فيبوس، واحمر وجهها حتى غدت وجنتاها كأنهما جمرتان. وبغير تردد أخذت دفها تحت ذراعها وشقت طريقها بين الناس متجهة إلى باب القصر الذي رأت فيبوس يطل من شرفته. وكانت خطوتها بطيئة مضطربة، ونظرتها زائغة، كأنها عصفور يستدرجه إليه بنظراته أفعوان.

وإن هي إلا برهة حتى أنجاب الستر الذي يغطي مدخل الحجرة وظهرت الغجرية على العتبة مضرجة الوجه مرتبكة لاهثة الأنفاس غضيضة الطرف، لا تجسر على التقدم خطوة واحدة.

وكان لظهور الراقصة الصغيرة أثر كبير في نفوس الفتيات، فإن جمالها الفطري الفائق كسف جمالهن المصقول المزوق وأشعرهن جميعا بالعداء

المشترك لها، لامتيازها عليهن في الملاحة والفتنة امتيازا ظاهرا، فلئن تبارين فيما بينهن أيهن أشد فتنة وأحظى بصاحب الكسوة العسكرية، فقد كان ميدان التنافس بينهن متكافئا، لتكافؤ الأسلحة، أما الآن فلا تكافؤ على الإطلاق، لأن جمال الغجرية الصاعق بهر أبصارهن وأزاغها، فأحسسن بالتضاؤل ورحن يرمقنها من قمة الرأس إلى أخمص القدم، ثم يتبادلن النظرات، فتم التفاهم فيما بينهن بغير حاجة إلى كلام.

أما الفتاة فلم تتكلم، بل ظلت على إغضائها وإطراقها تنتظر أن يبدأها الحديث، ولكن الكابتن فيبوس هو الذي تكلم أولا:

– ليت شعري، أنها مخلوقة فاتنة! فما تقولين يا بنت العم الجميلة؟

وجاءت هذه العبارة التي لم تنطلق من فم صاحبها بصوت منخفض ضغثا على أبالة، فكأنما ألقى على نار غيرة الفتيات حزمة من الحطب..

وأجابت فلور دي ليس وهي تتصنع الازدراء:

– لا بأس!

أما الأخريات فتهامسن فيما بينهن، وعندئذ تدخلت الكونتس قائلة للفتاة الراقصة:

– تعالى هنا يا بنية

فتقدمت الفتاة نحو السيدة النبيلة، وشاركها فيبوس ذلك الاتجاه، ثم قال لها حين صار في مواجهتها تماما:

– لست أدي يا مليحتي هل تذكرينني أم لا؟

فقاطعته الفتاة قائلة وقد أشرق وجهها بأعذب ابتسامة، ورمقته بأرق نظرة:

– بل أذكرك..

فقالت فلور دي ليس:

– أن لها ذاكرة قوية فيما بيدو.

فلم يلق فيبوس إلى ملاحظتها هذه بالا واستطرد:

– أنك هربت بسرعة في تلك الليلة. فهل أخفتك؟

فقالت الفتاة بكل بساطة وبلهفة شديدة:

– أوه، كلا..

فكان لشكل ثغرها وهي تقول أوه صورة أحست فلور دي ليس كأنها خنجر طعن فؤادها، وصاحت بحدة مشيرة إلى حزام الفتاة المذهب:

– أنك تعرضين نفسك يا فتاة للحبس بسبب حزامك هذا.

وقالت فتاة أخرى:

– ولو أنك لبست أكماما لما احترق ذراعاك بحرارة الشمس هكذا!

فضحك عندئذ فيبوس وقد رأى تحاملهن على الفتاة وقال:

– دعيهن يتكلمن يا بنية. فمما لا شك فيه أن ثوبك خارج عن حدود الحشمة وغريب التنسيق. ولكن أي قيمة لهذا ما دامت الفتاة التي ترتديه لها ظرفك وفتنتك؟..

فصاحت إحدى الفتيات، وهي تبتسم لفلور دي ليس ابتسامة تجمع بين السخرية والشماتة:

– أرى أن ضباط جلالة الملك من فرقة القناصة قد أصبحوا قنيصة سهلة لعيون الغجر السوداء.

فأجاب فيبوس على ذلك التحدي قائلا:

– ولم لا؟..

فرفعت الفتاة طرفها عن الأرض، ونظرت إلى فيبوس نظرة تفيض زهوا وسرورا، فبدت في هذه اللحظة في جمال ملائكي لا يوصف.

وصرخت الكونتس العجوز عندئذ صرخة ثاقبة:

– أعوذ بالعذراء مريم! ما هذا الذي عند قدمي؟ يا للحيوان النجس!

وكان الحيوان النجس هو العنزة البيضاء الصغيرة المذهبة القرنين والأظلاف، فإنها افتقدت سيدتها فصعدت تبحث عنها. وفي طريقها إليها اشتبك قرناها في تهاويل الثياب التي كانت تحيط بعجيزة الكونتس العجوز، حسب طراز ذلك العصر.

وأسرعت الغجرية الحسناء فخلصت قرني عنزتها بغير تعليق، ثم جثت على ركبتيها وضغطت خدها بخد العنزة، كأنها تستغفرها عن تركها إياها.

ومالت إحدى الفتيات على أذن فلور دي ليس وقد ذكرت شيئا غاب عنها:

– أنها هي الفتاة التي تعرض ألعاب الشعوذة مع عنزتها، ويقال أنها ساحرة، وأن عنزتها تعرض خوارق مذهلة.

– أحقا؟

– نعم. ليت العنزة ترينا الآن جانبا من خوارقها هذه كي تسلينا كما سلتنا صاحبتها..

واتجهت الفتاتان النبيلتان بالرجاء إلى الغجرية قائلتين:

– مري عنزتك أن ترينا إحدى معجزاتها.

- لست أدري ماذا تقصدان؟

- معجزة. عمل من أعمال السحر.

- لم أفهم مرادكما

وفي هذه اللحظة فطنت فلور دي ليس إلى حقيبة جلدية صغيرة مطرزة تتدلى من عنق العنزة، فسألت الغجرية باستغراب:

- ما هذا؟

فرفعت الغجرية عينيها الواسعتين إلى غريمتها وأجابت باتزان:

- هذا سري

فقالت فلور دي ليس في ذات نفسها:

- كم وددت لو اطلعت على سرك!

وحينئذ نفذ صبر الكونتس العجوز فصاحت بحدة:

- أيتها الغجرية. إذا لم يكن في نيتك أن تعرضي علينا ألعابك أو ألعاب عنزتك، فما وجودك هنا إذن؟

فلم تجب الفتاة، ووجهت خطواتها نحو الباب، ولكنها كانت كلما اقتربت منه ازدادت تباطؤا، فإن قوة خفية كانت تعرقل خطواتها وتثقل

قدميها. وفجأة استدارت وقد تندت عيناها بالدموع نحو فيبوس وتسمرت في مكانها، فصاح الضابط:

– لن تخرجي وربي هكذا. فتعالي وارقصي لنا قليلا. ثم هلا خبرتني أيتها المليحة بأي اسم يدعونك؟

فأجابته بدون أن تحول عينيها عن وجهه:

– أزميرالدا.

فما سمعت الفتيات هذا الاسم الغريب حتى انفجرن ضاحكات.

وفي هذه الأثناء كانت إحدى الفتيات قد نجحت في استدراج العنزة إلى ركن من أركان الحجرة، بعد أن أغرتها بقطعة من الكعك جعلت تطعمها إياها، حتى أنست العنزة إليها. فبعثت الفتاة بالحقيبة الجلدية ونثرت محتوياتها على البساط، فإذا هذه المحتويات حروف أبجدية متفرقة مصنوعة من الخشب.

وما أن انتثرت هذه الحروف على البساط، حتى خفت العنزة إليها، لتؤدي إحدى ألعابها التي دربت عليها أخيرا، وراحت بظلفها المذهب تنتقي بعض الحروف وترتبها ترتيبا خاصا، فلم تنقض دقيقة حتى تمت الكلمة التي يبدو أن العنزة تعلمت كيف تكتبها، وعندئذ صفقت الفتاة وصاحت:

– يا فلور دي ليس! انظري ماذا فعلت العنزة.

وأسرعت فلور دي ليس لتنظر، فارتاعت لما رأت. فقد كانت الحروف التي ارتسمت أمامها هي:

ف. ي. ب. و. س

ولكنها كتمت عواطفها وسألت الفتاة:

– أهي التي فعلت هذا وحدها حقا؟

– نعم!..

ولم يكن هناك مجال للشك، لأن تلك الفتاة كانت صغيرة لم تذهب بعد إلى مدرسة ولم تتعلم الكتابة، فقالت فلور دي ليس في نفسها:

– هذا إذن هو سرك!

وكان بقية الفتيات قد أسرعن ليرين هذا الذي أثار انتباه الفتاة الصغيرة وإعجابها، وكذلك أسرعت الغجرية والضابط، فتهامس الفتيات وتغامزن. أما أزميرالدا فاحتقن وجهها ثم اكفهر. وأما فلور دي ليس، فانفجرت باكية، ثم أغمى عليها.

وكان طبيعيا أن تثور الكونتس العجوز فصاحت:

– بنتي بنتي!. أخرجي أيتها الساحرة اللعينة!

فجمعت أزميرالدا الحروف بيد مرتعدة، ثم سحبت عنزتها وخرجت من الباب، في الوقت الذي حملوا فيه فلور دي ليس من باب آخر.

وخرجت الفتيات أيضا ليحطن بفراش صاحبتهن، وفي قلوبهن الإشفاق عليها ممتزجا بالشماتة بها، بعد أن افتضح أمر خطيبها الذي كانت كل واحدة منهن تتمنى لو ظفرت به لنفسها.

وكذلك بقى الكابتن فيبوس في حجرة الاستقبال وحده. فوقف مترددا لحظة طويلة من أي البابين يخرج: أمن الباب المفضي إلى الشارع، أم من الباب المفضي إلى مخدع فلور دي ليس.

وحسم الأمر أخيرا، فخرج إلى حيث يقتفي أثر الغجرية الحسناء.

حديث ١

إن القسيس الذي فطنت الفتيات إلى وجوده فوق قمة البرج الشمالي لكنيسة نوتردام مطلا على الميدان لم يكن في الواقع إلا صديقنا القديم الأسقف كلود فرولو، وكان بطبيعة الحال يرقب رقص أزميرالدا.

ولاحظ القسيس وهو في صومعته أن أصوات التصفيق تتصاعد من الشارع، ثم سمع دقات الدف فصعد إلى قمة البرج وجعل ينظر، ولم تفطن الفتاة وهي تلعب بالدف وترقص في رشاقة وخفة إلى أن من فوق التماثيل التي ترقبها من واجهة الكنيسة الشاهقة تمثالا بشريا يكاد يخرق بنظراته الملتهبة دفها الذي فوق رأسها.

وتكاثر الناس حول الراقصة، وكان هناك رجل على رأسه عقال أصفر فاقع اللون يطوف حول الناس بين الحين والحين كي يلزمهم ألا يتجاوزوا النطاق اللازم لحرية حركات الراقصة، ثم يجلس على مقعد خاص على بعد خطوات قليلة من الغجرية، ويتناول رأس العنزة بين ركبتيه.

وكان ظاهرا أن هذا الرجل هو رفيق الغجرية، ولم يكن ليتسنى للأب كلود فرولو أن يتبين ملامح ذلك الرجل من هذا الارتفاع الشاهق. ولكن مما لا شك فيه أنه منذ فطن الأسقف إلى وجود ذلك الرجل، صار انتباهه

الشديد موزعا بين الراقصة وبينه. ثم لم يلبث بدنه أن ارتجف من مفرق شعره إلى قدميه وراح يتساءل:

– من هذا الرجل؟ لقد كنت أراها دائما وحدها...؟

ثم اختفي من فوق قمة البرج، وراح يهبط السلالم الدائرية، فلما مر بباب حجرة النواقيس الذي كان مواربا رأى شيئا أدهشه: رأى كازيمودو مطلا من كوة صغيرة في تلك الحجرة وقد استغرق في الشخوص إلى شيء في ذلك الميدان، وقد بلغ استغراق كازيمودو في ذلك أنه لم يفطن إلى مرور والده بالتبني، فقال الأب كلود لنفسه:

– ما أعجب هذا! أتراه ينظر إلى هذه الفتاة؟!

ثم استأنف هبوطه، فإن هي إلا بضع دقائق حتى كان الأسقف قد خرج من باب في أسفل البرج إلى ساحة الميدان.

فلما اختلط بالمشاهدين لم يجد للفتاة أثرا، فسأل أقرب الواقفين إليه:

– أين الفتاة؟

– لست أدري! لقد اختفت، وأظنها ذهبت تعرض رقصاتها في هذا القصر، فقد سمعتهم ينادونها من الشرفة.

وفي هذه اللحظة قام الرجل الذي كان جالسا على الكرسي وعلى رأسه عقال أصفر، فجعل يدور حول حلقة المتفرجين ويداه في خاصرته، ورأسه المحتقن ملقى إلى الوراء، وفوق أسنانه ذلك الكرسي، يمشي به متوازنا غير مرتكز إلا على رجل واحدة، وفوق الكرسي قطة استعارها من إحدى الجارات، وربطها كي لا تهرب، وهي تملأ الجو صياحا ومواء.

فلما مر الرجل بهذه الصورة الغريبة أمام الأسقف، صاح الأسقف:

– أعوذ بالعذراء! ماذا يصنع الأستاذ بيير جرنجوار هنا؟

فكانت هذه الصيحة كافية لفقدان الأستاذ بيير جرنجوار لتوازنه، فوقعت القطة والكرسي فوق رؤوس المشاهدين، وتعالى الصياح واشتد الهرج والمرج، وكان حريا أن يلقى ما يكره من صاحبة القطة ومن المتفرجين، لولا أنه لاذ بالكنيسة، حيث تبعه الأسقف.

وكانت الكنيسة مظلمة خالية، لا تضيئها إلا قناديل خافتة متناثرة، وإلا أشعة ضئيلة تنحدر من النافذة المستديرة التي كانت تتوهج في شعاع الأصيل الباهت كأنها ماسة ضخمة، فلما خطا الكاهن والشاعر بضع خطوات في داخلها، وقف الأسقف فأسند ظهره إلى عمود ورشق جرنجوار بنظرة ثاقبة.

ولم تكن هذه النظرة من ذلك الضرب من النظرات الذي كان يتوقعه الأستاذ جرنجوار بعد أن ضبطه هذا الأسقف الجليل في هذا الزي الغريب وعلى هذه الصورة التي لا تليق بمثله، فقد كانت نظرة الأسقف خالية من

كل أثر للسخرية، فهي جادة هادئة فاحصة. ولذلك وقف جرنجوار صامتا لا يدري ما يقول، إلى أن قال الأسقف:

– لعمري أنها لحرفة رائعة!..

– وما ذنبي إذا كانت الأيام يا سيدي الأسقف قد أرغمتني على أن استخدم مواهبي الذهنية هذا الاستخدام المزري؟

– كل هذا صحيح يا أستاذ جرنجوار، ولكن ما الذي جمع بينك وبين هذه الراقصة الغجرية؟

فقال جرنجوار بكل بساطة:

– مجرد أنها زوجتي وأنا زوجها.

فإذا عينا الأسقف تتوهجان، وإذا به يقبض على ذراع جرنجوار بشراسة ويصرخ في وجهه بصوت كزئير الأسد:

– وهل بلغت بك الشقوة أيها التعس أن تفعل هذا؟

– أفعل ماذا؟

– هل لعنك الله فمددت يدك إلى هذه الفتاة؟

فارتعدت فرائص جرنجوار وأجاب:

– أقسم بكل ما قسم لي من جنة الفردوس يا سيدنا الأسقف أنني لم أمد يدي إليها، ولم أمسسها، إذا كان هذا ما أثارك.

– فما الذي ذكرته الآن عن زواجك منها؟

فأنشأ جرنجوار يحدثه في شاعرية وطلاقة عن كل ما وقع له، وكيف انتهى به ذلك إلى زواجه منها، وكيف أنها ما فتئت تحبسه كل ليلة، وتبيت وحدها مع عنزتها، ثم أردف:

– وهكذا سوء طالعي يلازمني، حتى حين أصاب بالزواج، يتبين أن زوجتي قد نذرت التبتل.

فسأله الأسقف في لهفة عظيمة:

– التبتل؟.. ماذا تعني؟..

– هذا موضوع تفسيره عسير، فقد ذكر لي دوق بوهيميا– وهو زعيم قبيلة الغجر– أن زوجتي فتاة مفقودة أو مسروقة منذ كانت في العام الأول من عمرها. وهي تحمل حول عنقها تعويذة يقولون أنها ستهتدي بها يوما إلى والديها الحقيقيين، إذا بقيت عذراء. أما إذا فقدت بكارتها فإن هذه التعويذة تفسد ولا تهتدي إلى أهلها أبدا، ولهذا يا سيدي الأسقف أكرهتنا الأيام أنا وزوجتي على العفة.

– كذلك تعتقد أنت يا أستاذ جرنجوار أن هذه المخلوقة لم يمسسها رجل؟

– طبعا. فهذه خرافة راسخة في رأسها لا سبيل إلى إقلاعها عنها وهي لا تعيش إلا بأمل واحد، هو العثور على أهلها.

ثم انطلق يحدث الأسقف، أستاذه السابق، عن حياة الغجر، وعما يرتزقون منه من ألعاب تقوم على خفة اليد، وينسبها الناس إلى السحر والشياطين. إلى أن قال:

– وكذلك الألعاب التي تعرضها العنزة ذات القرون والأظلاف المذهبة لا بأس بها على الإطلاق. فسيدتها تدربها على هذه الألعاب، وأؤكد لك يا سيدي الأسقف أنها عنزة ذكية. فقد تعلمت في أقل من شهرين كيف تتهجى بواسطة حروف خشبية متفرقة كلمة "فيبوس".

– فيبوس؟ ولماذا فيبوس؟

فهز جرنجوار كتفيه في سذاجته الشاعرية وقال:

– لست أدري. ولعلها كلمة تظن الفتاة أن لها أثرا سحريا خاصا، فإن معناها الشمس، وأني أستنتج ذلك من مشاهداتي.

– أي مشاهدات؟

– أنها تكرر هذه الكلمة بصوت خافت كلما ظنت أنها وحدها فرشقه الأب كلود بنظرة فاحصة وقال:

– أأنت واثق من استنتاجك؟ أهي حقا مجرد كلمة، أم هي اسم؟

– اسم؟ اسم من؟

– وكيف أعلم أنا؟

– أنني يا سيدي أعتقد أنها اسم الشمس.

– هذا اعتقاد لا يقنعني كما يقنعك يا أستاذ جرنجوار.

– وما الذي يضني فؤادي؟

– أليست زوجتك؟

– بلى، ولكن فلتغمغم بكلمة فيبوس ما شاءت. فإنني واثق من شيء واحد، هو أن جالي تحبني حبا لا مزيد عليه.

– ومن هي جالي؟

– العنزة.

ووضع الأسقف يده تحت ذقنه، وشرد ذهنه لحظة، ثم لم يلبث أن التفت إلى جرنجوار فجأة وصاح به:

– أتقسم أنك لم تقربها؟

– أنا أقربها؟

– أتقسم؟

– أنا يا سيدي الأسقف أقرب عنزة؟

– كلا، بل المرأة..

– زوجتي؟ أقسم طبعا أنني لم أقربها.

– وهل تختلي بها كثيراً؟

– طبعا، كثيرا جدا.

– وحدكما تماما، والباب مقفل عليكما؟

– وحدنا تماما يا سيدي، كل ليلة، ساعة كاملة.

– اسمع. أقسم لي الآن ببطن أمك أنك لم تقرب هذه المخلوقة حتى ولا بطرف بنانك.

– بل وأقسم أيضا برأس أبي، ولكن أرجو أن تسمح لي يا أستاذي الجليل أن أسألك سؤالا واحدا..

– تكلم، اسأل.

– ما قيمة المسألة بالنسبة لك؟

فتضرج وجه الأسقف ولزم الصمت لحظة ثم قال:

– إني أحبك يا أستاذ بيير جرنجوار، ولا أرضى لك أن يغضب الله عليك واعلم أن أقل اتصال جنسي بهذه الفتاة الغجرية سيجعل روحك في قبضة الشيطان. فالبدن كما تعلم يا أستاذ جرنجوار هو الذي يودي دائما بالروح إلى الهاوية. آه يا أستاذ جرنجوار لو تعلم ما تجره الصلة بهذه المرأة من جناية على روح المؤمن.. وهذا كل ما عندي...

فهرش جرنجوار خلف أذنه وقال:

– فليسامحني الرب!

– ماذا تقول؟ أفصح!

– لقد حاولت في الليلة الأولى، ليلة الزفاف كما تعلم، بل كيف تعلم يا سيدي الأسقف وأنت الراهب رجل الله المتبتل؟ لقد حاولت في تلك الليلة ولكنها رفضت.

– وهل بلغت بك الجرأة هذا المبلغ يا أستاذ جرنجوار؟

– نعم، وارتكبت إثما آخر يا سيدي الأسقف معها.

– ماذا؟ أفصح!

– في تلك الليلة. وفي كل ليلة. انظر من ثقب الباب فأرها بثياب النوم راقدة فوق فراشها، وأؤكد لك يا سيدي الأسقف أنها أجمل من

رقدت في الدنيا على فراش. وساقاها يا سيدي الأسقف لو رايتهما عاريتين..

فصرخ الكاهن في وجه الشاعر وهو يدفعه من كتفيه إلى خارج الكنيسة:

– اذهب يا صنيعة الشيطان! اذهب قبحك الله!

* * *

منذ ذلك الصباح الذي جلد فيه كازيمودو بالسياط، لاحظ المحيطون بكنيسة نوتردام أن قرع النواقيس قد خفت حدته بشكل ظاهر، بعد أن كانت تلك النواقيس لا تكف عن الرنين في كل مناسبة ممكنة وبأقصى شدة. فأصبحت الكنسية منذ ذلك اليوم وعليها من السكينة والوجوم نقاب ثقيل، فالأعياد وأيام الآحاد في هذين الشهرين لم تعد لها روعتها وبهجتها، فلا صليل يشق عنان السماء معلنا حبور أهل الأرض بأيام الله، إلا في أضيق الحدود التي لا سبيل إلى إغفالها بحكم الطقوس. فظن البعض أن قارع الأجراس العتيد كازيمودو قد خلت منه كنيسته التي حبا في أروقتها غلاما، ودرج بين رحباتها صبيا وتسلق أعمدتها وسلالمها يافعا وامتزجت رنات الأجراس بلحمه وأعصابه، وجرت مجرى الدماء في عروقه وأوصاله.

ولكن كازيمودو ما زال هناك، فماذا دهاه إذن وماذا غيره من حال إلى حال؟ أهو الخجل والخزي قد استوليا على قلبه؟ أهي ألسنة السوط ما برحت تتراءى أمام عين مخيلته؟ أهو الحزن قد قضى فيه على كل شعور

وأطفأ في سريرته ما كان من وجد له وهيام بنواقيسه؟ هل سلا عهد ماري، كبرى نواقيس نوتردام، وسلا معها أخواتها الأربع عشرة؟

لقد حدث في اليوم الخامس والعشرين من مارس أن شعر كازيمودو بلطافة في الهواء جددت في نفسه عاطفته القديمة نحو الأجراس، فراح يصعد سلالم البرج الشمالي، حتى وصل إلى حجرة الأجراس فجعل يرمقها لحظة طويلة ويهز رأسه كمن يتحسر لأن حائلا قد حال بينه وبينها، ولكنه ما أن لمسها وحركها حتى تجددت سعادته السابقة، واستعاد حبوره وسروره، فانغمس في تلك اللذة التي لم يعرف طول حياته سواها. فإذا به يقفز من هذا الحبل إلى ذاك، ويتأرجح متعلقا به هنا وهناك، صائحا بأعلى صوته يستحث الأجراس على الاهتزاز والرنين بأقصى قوتها، فلو رآه أحد في تلك اللحظة لحسبه قائد فرقة موسيقية في موجة القيادة وحماستها:

– هيا يا جبرييل، جلجلي في الميدان بأقصى قوتك، فاليوم عيد.. هيا يا جيزيل! انفضي عنك كسلك! أتتناومين؟! انهضي!.. مرحى مرحى يا باسكين! أنت الصغرى، ولكنك لست أقل أخوتك نشاطا وهمة! أما غليوم، فإنه لا يعجبني هذا الصباح.

وفيما كان كازيمودو منهمكا في هذه الحركات، وقد نسى همومه وآلامه وكأنها لم تحدث، وقع نظره عفوا من خلال الكوة المطلة على الميدان فرأى فتاة في ثياب مزركشة تبسط على الأرض بساطا عتيقا، لم تلبث أن افترشته عنزة صغيرة بيضاء، ثم بدأ الناس يتجمعون.

وكان هذا المنظر كافيا لانصراف كازيمودو عن أجراسه، فتركها تكف، واستدبرها، مستغرقا في النظر إلى الفتاة الغجرية ورقصاتها، وقد فاضت عينه بالحنان والرقة.

وعلى هذه الصورة بصر به والده بالتبني الأسقف كلود فرولو، وهو هابط من قمة .

ذو الرداء الأسود

حدث ذات صباح من أيام شهر مارس هذا، وفي اليوم التاسع والعشرين منه على وجه التحديد، أن صديقنا الطالب الماجن جيهان فرولو فطن إلى أن الجيب الذي يحتوي على كيس نقوده لا يصدر عنه صليل معدني، فأخرج الكيس وهزه بجوار أذنه، ثم قال:

– حسرتي عليك يا كيسي! هل بلغت بك الحال هذا الحد من الفراغ؟ أليس فيك فلس واحد أيها الكيس العزيز؟

وخطرت لجيهان عندئذ خاطرة وهو يربط حذاءه. وطرد هذه الخاطرة من ذهنه لأنها لم ترقه، بيد أنه عاودته وألحت عليه، فلم يستطع مقاومتها وأخيرا دق الأرض بقدمه وصاح:

– ليكن! وليحدث ما يحدث! سأذهب إلى أخي. وسوف يعطيني موعظة طويلة عريضة، أطول من ليل الشتاء، ولكنه سيعطيني أيضا جنيها.

وأسرع بارتداء قبعته ثم انطلق كالمجنون.

ودخل على أخيه في صومعته، فابتدره أخوه الأسقف مقطبا:

– ما الذي جاء بك؟

- المسألة بصراحة أنني أريد نقودا.

فلما سمع الأسقف هذا التصريح الجريء ارتسمت على وجهه السمات التربوية وقال:

- أنت تعلم يا سيد جيهان أن الوقف الذي ورثناه لا يغل إلا نصف ما كان يغله في السنوات الماضية، وذلك كما تعلم...

- أريد نقودا.

- أنت تعلم أن علينا ديونا.

- أنا أعلم فقط أنني أريد نقودا.

- لا نقود. فاخرج الآن لأني انتظر ضيوفا.

- يا أخي العزيز، أعطني فلسا واحدا أفطر به. ثم انظر إلى حذائي البالي.

- سأبعث إليك بطعام وبحذاء جديد. أما النقود.

- أرجو منك، أتوسل إليك.

وفي هذه اللحظة ترامت إلى سمعهما أصوات خطوات تصعد السلم المفضي إلى الصومعة، فوضع الأسقف سبابته فوق شفتيه وقال:

- صه صه! هذا الأستاذ جاك قد أقبل، اسمع يا جيهان.

ولانت ملامحه عندئذ ثم استطرد:

– أدخل تحت هذه المنضدة كي يخفيك غطاؤها، وإياك أن تتنفس، ولا تذكر لأحد ما رأيت أو سمعت هنا.

فأسرع جيهان بالدخول تحت غطاء المنضدة، بيد أن فكرة سعيدة طرأت على باله فأطل برأسه وجذب ثوب أخيه الأسقف قائلا:

– يا شقيقي العزيز، جنيها ذهبيا أكتم به أنفاسي.

– صه! أعدك بذلك.

– كلا أيها العزيز، أفضل أن تعطيني إياه وتحتفظ بالوعد لنفسك فألقى إليه الأسقف بكيس نقوده غاضبا، فأخذه جيهان وتوارى، ثم انفتح الباب.

* * *

وكان الرجل الذي دخل من الباب يرتدي السواد. وأول ما لفت نظر جيهان وهو يتلصص عليه من ثقب في الغطاء أن وجه الرجل كان كئيبا واجما كثوبه. ولكن ذلك لم ينجح في إخفاء لمحة من لمحات الدماثة التي تعهد في القطط وفي القضاة، فهي دماثة مموهة مصطنعة.

وكان الرجل إلى هذا أشيب الشعر، متألق العينين، متغضن الوجه، أبيض الحاجبين يخطو نحو الستين من عمره، وله يدان كبيرتان.

وتصافح الرجلان، فدل سلامهما على أن الزائر يجل الأسقف كثيرا، وبعد ذلك قال الأسقف بعد أن رأى صمت الزائر:

– ما مدى نجاحك يا أستاذ جاك؟

– للأسف يا أستاذي أنني لا زلت أنفخ، ولكن لا أثر للذهب فبدت على الأب كلود علامات نفاد الصبر وقال بحدة:

– لست عن هذا أتكلم يا أستاذ جاك شارموني، بل عن القضية المرفوعة ضد الساحر مارك، فهل نجحت في حمله على الاعتراف؟ وهل أجدى التعذيب؟

فأجاب الزائر محتفظا بابتسامته الوديعة:

– كلا للأسف، لم يسعدنا الحظ بذلك. فهذا الرجل كالصخر لا يتزعزع، مع أننا لم ندخر لونا من ألوان العذاب في سبيل الوصول إلى الحقيقة.

– ألم تجدوا جديدا في بيته؟

فتحسس الأستاذ جاك جيبه ثم قال:

– بلى، بلى، لقد وجدنا هذا الرق، وفيه كلمات لم نفقه معناها.

– أعطنيه، أعطنيه.

ثم بسط الرق وألقى عليه نظرة، صاح بعدها:

- سحر ولا شك يا أستاذ جاك: "يا أهرمان الوحي الوحي، العجل العجل". هذه اصطلاحات تستخدم لتحضير الشياطين وتسخيرها. أما "هاكس باكس ماكس" فتعويذة شيطانية طبية تستخدم للوقاية من عض الكلام المسعورة، وبصفتك يا أستاذ جاك النائب العام لدى المحكمة الكنسية، عليك أن تعلم أن هذا الرق جريمة خطيرة.

- سنقوم بتعذيبه مرة أخرى. وبهذه المناسبة، متى تريدني أن اهتم بتلك الساحرة الصغيرة التي حدثتني عنها؟

- أي ساحرة؟

- تلك الغجرية التي تأتي كل يوم وتعرض رقصاتها في ساحة الاعتصاب أمام باب الكنيسة رغم تحريم ذلك عليها مرارا. وقد قلت لي أن لديها عنزة قرونها قرون شيطان، وهي مسكونة بالعفاريت حتى أنها تحسن القراءة والكتابة، وتتقن الحساب كما يتقنه وزير المالية ومحصل الضرائب. وأذكر أنك قلت لي أيضا أن هذه العنزة كافية وحدها لشنق جميع أهل بوهيميا، وقد أعددت للأمر عدتي، فكتبت صحيفة الاتهام ومرافعة النيابة. وسيلذ لي كثيراً أن أجهز عليها في أقرب فرصة. فمتى تحب أن نشرع في العملية؟

فاكفهر لون الأسقف، ثم غمغم في صوت لا يكاد يسمع:

– سأخبرك في الوقت المناسب، فتفرغ الآن للساحر مارك.

– سنعذبه أشد العذاب، فاطمئن.

وبدأ الأسقف يتخوف من صدور أي حركة من أخيه جيهان تنم عن وجوده، فذكر زائره الفاضل أنه كان قد أبدى رغبة في دراسة بعض النقوش القديمة التي تعلو باب الكنيسة وبهذا غادر مع زائره الصومعة، الأمر الذي أثلج صدر جيهان، لأنه كان قد بدأ يخشى جديا أن تنطبع إلى الأبد صورة ذقنه في ركبته، فقام منتصبا وهو يهتف:

– هللويا هللويا! كيرياليسون.. يا رب ارحم! هاكس باكس ماكس! ليت هذه الرقية تقيني عضة الكلاب المسعورة، وأولها الأستاذ جاك، النائب العام أمام المحكمة الكنيسة، وليتها تقيني هذا الصداع الذي يرن في جمجمتي كنواقيس نوتردام، ولأذهب الآن بكيس أخي الفاضل فأحول كل ما فيه إلى زجاجات تزيح عن الكاهل عبء الهم.

وأسرع يهبط الدرج، فلما وصل إلى الأرض، أبصر أخاه وزائره منهمكين في تفحص بعض نقوش الباب. وفي الوقت نفسه سمع صوتا رنانا يقذف بالشتائم واللعنات فهتف:

– هذا لا يمكن أن يكون سوى صديقي الكابتن فيبوس.

ثم تعانقا، ولكن اسم فيبوس كان قد طرق أذن الأسقف، الذي كان يشرح الصورة لضيفه الأستاذ جاك شارموني، فقطع الكلام والتفت ليرى

شقيقه يعانق ضابطا طويل القامة كان خارجا من باب قصر فلور دي ليس. وكان هذا الضابط هو صاحبنا طبعا، وكان سبب تلك الشتائم أنه كان ثائرا. وسأله جيهان عن سبب ثورته فقال:

– هاتيك النسوة النبيلات لا أستطيع الانطلاق في الكلام على حريتي معهن، خوفا من أن يزل لساني بالسباب الذي لا استطيع الكلام من غير أن أرصع به عباراتي. فمتى خرجت من باب بيتهن، جعلت أخرى كل ما احتبس في حلقي من أنواع السباب، وإلا شرفت به.

– مرحى مرحى يا أظرف الرفاق! هل تأتي معي فنشرب؟

– أوجه اقتراح سمعت به. ولكن العين بصيرة...

– ويدي أنا طويلة.

– كلام فارغ.

– بل عامر.

– أبرز.

– ها هو الكيس.

وجعل جيهان يصله ويطوحه أمام ناظري الضابط في وقار، فعانقه فيبوس.

– وأين نذهب، يا مهذب؟

– كما تشاء، إلى "تفاحة حواء"!

– فلتحيى حواء. أحب حواء!

وانطلق الصديقان العربيدان، وغني عن البيان أن الأسقف قد تبعهما على مبعدة، وهما في شغل عنه بالغناء والعربدة.

ومن قرأ أسارير الأسقف كان يراها ناطقة بالوجوم الشديد. فهو يسائل نفسه:

– أترى هذا هو فيبوس صاحب ذلك الاسم الملعون الذي جعل يراوده في الأحلام، ويتراءى له في اليقظة والمنام، منذ أفضى إليه جرنجوار بما كان من أمر أزميرالدا والعنزة؟

وكأنما قيض له أن يعرف جواب سؤاله في غير عناء، فإنه لم يلبث أن اقترب منهما في زحمة الطريق، فسمع حديثهما بجلاء، لأن من عادة السكارى والمجان أن يتكلموا في الطريق بصوت مرتفع، ذلك أنهم لا يبالون ولا يستحون.

وفي تلك اللحظة ترامى إلى الإسماع صوت نقر على الدف من حارة معترضة، فصاح فيبوس بصوت جهير:

– أسرع يا جيهان بربك.

– ولماذا يا فيبوس؟

– أخشى أن تراني الغجرية.

– أي غجرية.

– صاحبة العنزة.

– أتعني أزميرالدا؟

– بعينها يا جيهان. فإني أنسى اسمها الشيطاني على الدوام، فأسرع حتى لا تراني، فإني لا أحب أن تتحدث إلي في الشارع.

– هل تعرفها إذن يا فيبوس؟

وعندئذ سمع الأسقف ضحكة خبيثة تنطلق من فم فيبوس ثم رآه يميل على أذن جيهان ويسر إليها شيئا، ثم ينفجر ضاحكا ويهز رأسه هزة المزهو بانتصاره، فقال جيهان:

– أحقا ما تقول؟

– بشرفي.

– الليلة الليلة؟

– الليلة.

– وهل واثق أنت أنها ستأتي؟

– هل أنت أبله يا جيهان؟ وهل يشك الإنسان في مثل هذا الأمر؟

– أنك رجل محدود يا كابتن فيبوس.

وسمع الأب كلود فرولو هذا الحديث كله، فاصطكت أسنانه، وانتابت الرعدة جسده كله ووقف في مكانه لحظة مستندا إلى جدار، شأن المخمور المتداعي، ثم استأنف تعقب الصديقين الماجنين، ولكنه حين لحق بهما وجدهما قد غيرا مجرى الحديث.

هو الحب

تقع حانة "تفاحة حواء" في حي الجامعة على ناصية شارعين، والقاعة الرئيسية في الطابق الأرضي، وهي واسعة منخفضة السقف في وسطها عمود ضخم من الخشب مطلي باللون الأصفر، وكان الليل قد أخذ يرخي سدوله، فالشوارع معتمة والحانة موقدة الشموع، فتبدو من بعيد كأنها كور حداد وللكؤوس فيها رنين تطغى عليه ضحكات الندمان وصيحاتهم وشجارهم. غير أن ذلك ما كان ليزعج أحدا لأن الطريق خال منذ وقت طويل بسبب الظلام.

كان هذا هو المفروض، وكان من الممكن أيضا أن يكون هو الواقع، لولا أن شخصا كان يروح ويغدو أمام بابا الحانة في قلق ظاهر، وقد اشتمل بعباءته مغطيا نصف وجهه الأسفل حتى ما تحت عينيه، فعيناه على باب الحانة كأنه يترقب خروج شخص.

وأخيرا انفتح الباب وخرج اثنان منتشيان، فتوارى الرقيب في باب بالناحية الأخرى من الشارع، وإذا أحد الشابين يصيح:

– لقد حان موعدي. تمام السابعة.

– على مهلك. فساقاي لا تستطيعان حملي بهذه السرعة.

– اعمل معروفا. فإني لا أستطيع التأخير. ولابد لي من مفارقتك.

– اذهب أنت إذن.

– أعطني إذن نقودا.

– ومن أين لي؟ لقد شربنا بها كلها.

– يا حبيبي جيهان. أنت تعلم أنني يجب أن أقابل هذه الفتاة عند قنطرة القديس ميشيل، وليس أمامي مكان اجتمع بها فيه إلا عند العجوز فالورديل قرب القنطرة، وهي تتناول دائما أجر الحجرة سلفا. فأتوسل إليك يا جيهان. ألم يبق معك شيء؟

– لا شيء على الإطلاق.

فتركه فيبوس يترنح وانطلق وحده وهو يسب ويلعن، وتعقبه الأسقف تاركا أخاه يتقيأ على جانب الطريق تحت رحمة القضاء والقدر.

وعند منعطف الشارع فطن فيبوس إلى أن هناك من يتعقبه، بيد أنه لم يكترث لأنه مفلس، وماذا يخاف المفلس من لص؟

وبعد شوط آخر أدرك أن الشبح لا يزال يتعقبه، فوقف في مكانه، بيد أن الشبح لم يقف بل استمر في طريقه إلى أن واجهه، فحدق في فيبوس بعينين ثابتتين تلمعان في الظلام كعيني القطط، فارتبك فيبوس ولم يدر ماذا يصنع أمام هذا الشبح العجيب الذي لا يسلك سلوك اللصوص

وقطاع الطريق. فلو كان ذلك الشبح لصا لما خشيه، لأن سيفه معه. أما هذا الشبح فقد جعل الدم يجمد في عروقه، لأنه خشي أن يكون عفريتا من عفاريت الرهبان التي تزعم الإشاعات أنهم يجوبون الشوارع في الليل.

وأخيرا ابتلع ريقه وقال وهو يتصنع الضحك:

– إن كنت لصا يا سيدي، فإن أمامك لسوء حظك أشد رجال الجيش إفلاسا.

فأخرج الشبح ذراعه من تحت عباءته ووضعها فوق عاتق الضابط ثم قال:

– كابتن فيبوس دي شاتوبير!

– يا للشيطان! أتعرف أسمي؟

فأجابه الشبح بصوت كأنه خارج من جوف قبر.

– ليس ما أعرفه فقط هو اسمك، بل أعرف أيضا أنك على موعد هذه الليلة.

– هذا صحيح..!

– في الساعة السابعة.

– أي بعد ربع ساعة..!

– ومكان الاجتماع عند العجوز فالورديل أمام قنطرة القديس ميشيل.

– وما اسم هذه المرأة؟

– أزميرالدا.

فإذا بأصابع الشبح تكاد تنغرس في ذراع الضابط وهو يهزه ويصيح به:

– كابتن فيبوس دي شاتوبير، أنت كاذب!

ولو قالها أي إنسان لما أمن عاقبتها، ولكنه أمام شبح، فارتعد غضبا وهتف:

– هذه كلمة قل أن تطرق سمع فرد من آل شاتوبير. أتجسر على تكرارها؟

– أنت تكذب!

فصرف الضابط على أسنانه، ونسى كل شيء من غرابة الموقف، وصاح:

– هيا! سيفك يا هذا!

ولكن الآخر لم يتحرك في مكانه. ولما رأى الضابط وقد جرد سيفه مستعدا للاشتباك في القتال، قال له بلهجة تقطر مرارة:

– كابتن فيبوس! أراك نسيت موعدك.

فكان ذلك كافيا لرد الضابط إلى صوابه في الحال، فجمد في مكانه وخفض ذؤابة سيفه، وعندئذ استطرد الشبح قائلا:

– كابتن فيبوس. غدا، أو بعد غد، أو بعد شهر، أو بعد عشرة أعوام، ستجدني في انتظارك كي أقطع رقبتك، أما الآن فأذهب إلى موعدك أولا.

فقال فيبوس:

– الواقع أن المرأة والسيف عنصران يلذ اجتماعهما في مغامرة واحدة. ولكن معك حقا، فلست أرى وجها للتفريط في أحدهما من أجل الآخر، ما دام في وسعي أن أنالهما جميعا على التعاقب.

ثم أغمد سيفه واستأنف كلامه:

– وشكرا لك يا سيدي على مجاملتك هذه. ففي الوسع أن نتقابل غدا ونتقاتل. والآن استودعك الله، ولكن مهلا، يبدو لي أنك رجل شهم، وما دمت حريصا على أن أنال لذتي، فهلا أعنتني عليها. فصاحبة الحجرة لن تسمح لنا بالمبيت فيها بلا مقابل، وليس معي ما أعطيها إياه، والحق أنني كنت في حيرة من أمري.

- هاك ما يكفي.

فمد فيبوس يده ليتناول الجنيه الذهبي، ولكن الشبح لم يسلمه له بل قال:

- بشرط.

- ما هو؟

- أن تثبت لي خطئي، وأنك كنت صادقا.

- وكيف تريد هذا الإثبات؟

- تخفيني في ركن أرى فيه بعيني أن التي سميتها هي التي تجتمع بها.

- سيان عندي، ففي الحجرة خزانة منفصلة تستطيع أن تختبئ فيها وتنظر من ثقب الباب.

- إذن هيا بنا.

- سأقدمك أولا إلى العجوز، ثم أتركك في الخزانة واذهب لإحضار الفتاة.

- وهو كذلك.

وما لبث الضابط أن وقف عند باب منخفض فطرقه فبرزت منه عجوز طلبت إليهما أن يصعدا السلم وراءها. وهناك وضعت مصباحها

فوق دولاب له درج، وفتح فيبوس بابا جانبيا يؤدي إلى الخزانة، وقال لصاحبه:

– ادخل هنا أيها الصديق.

فدخل الرجل الملثم بعباءته وأقف عليه الباب، وبعد لحظة سمعه يهبط السلم مع المرأة واختفي النور. فجعل يغمض عينيه ويفتحهما، كي يتعود الظلام ثم تحسس الأرض إلى أن عثر بقطعة مكسورة من الزجاج، فوضعها فوق جبهته كي ترطب ببرودتها الحمى التي كان يشعر بها تسري في أوصاله.

والله وحده يدري ما الذي كان يعتلج في هذه اللحظة في سريرة الأسقف.

* * *

وطال انتظاره ربع ساعة، شعر بعدها أنه شاخ خمس عشرة سنة في هذه الدقائق الخمس عشرة. وفجأة سمع وقع أقدام تصعد السلم، ورأى بصيصا من النور من خلال خشب الباب، فوضع عينه على ثقب متسع بحيث يرى كل ما يدور في الحجرة الأخرى.

وكان أول ما رآه هو دخول المرأة العجوز حاملة المصباح في يدها ومن ورائها فيبوس يفتل شاربه، ومن ورائه طلعة أزميرالدا البهية، فزاغت عيناه وارتعدت أوصاله وخانته ركبتاه وأحس بعروق رأسه تنتفض انتفاضا

شديدا، وغاب عن وعيه برهة. فلما ثاب إلى نفسه رأى فيبوس وأزميرالدا وحدهما جالسين فوق الأريكة إلى جوار المصباح.

وكان وجه الفتاة متضرجا بحمرة شديدة، وهي ترتعد وتضطرب غضيضة الطرف لا تجسر على رفع عينيها إلى الضابط الذي كان منتفخ الأوداج.

وكانت الحسناء تداري اضطرابها بالتشاغل برسم خطوط بأناملها على حرف الأريكة. أما قدمها فلم يتمكن من رؤيتها، لأن العنزة كانت راقدة فوقها.

وفي مشقة شديدة استطاع الأسقف أن يسترق السمع، لأن دقات قلبه كانت تعصف به وتملأ أذنيه لفرط انفعاله.

وسمع الفتاة تقول بصوت موسيقي دون أن ترفع عينيها عن الأرض:

– لا تحتقر شأني يا فيبوس. فإني أشعر أنني مقدمة على خطأ جسيم.

– احتقرك يا جميلتي؟ ولماذا بحق الشيطان؟

– لأنني تبعتك.

– أنا لست على مذهبك في هذا. بل أني يجب أن أكرهك.

فحملقت فيه الفتاة عندئذ مروعة وهتفت:

– تكرهني؟ لماذا؟ ماذا صنعت؟

– لأنك تأخرت طويلا واقتضيت مني كل هذا الإلحاح.

– كلا. ليس هذا. فلا تظن أني أمتن عليك أو كنت متمنعة غير راغبة. فالأمر على عكس هذا تماما، وكل ما هناك أنني مقدمة على الحنث بنذري، وسوف لا أهتدي إلى أهلي، وستفقد التعويذة تأثيرها السحري. ولكن ما قيمة هذا كله إذا حرمت منك؟ وما أبي وما أمي بالنسبة لي الآن بعد أن وجدتك يا حبيبي!

وكانت ترمقه بعينين واسعتين سوداوين يأتلق فيهما الحبور والهيام، فصاح:

– فليأخذني الشيطان إذا كنت قد فهمت حرفا واحدا.

فظلت أزميرالدا صامتة برهة، ثم انحدرت من عينها دمعة، وانطلقت من شفيتها آهة. وقالت في شغف وتوله:

– آه يا عزيزي. كم أحبك..!

وكان يشع من الفتاة جو من الطهر والعفاف، بحيث أن فيبوس الماجن الداعر نفسه لم يجد نفسه على سجيتها في سهولة تناولها بيد أن هذه الكلمات شجعته فقال:

– وأنا أحبك!

وكأنه كان ينتظر هذه الفرصة، فطوق بذراعه خصرها، فلما رأى الأسقف ذلك تحسس بأصابعه مقبض الخنجر الذي يحمله في ثنايا ثوبه.

واستطردت الفتاة تتشبب بصاحبها وتصب روحها في كلماتها:

– فيبوس. أنت كريم شهم وجميل. لقد أنقذتني أنا التي لست إلا فتاة وضيعة من فتيات بوهيميا الغجريات، وطالما حلمت بضابط ينقذ حياتي. أنت الذي حلمت به قبل أن أعرفك يا فيبوس واسمك ما أجمله. أنا أحب اسمك. وأحب بدلتك. وأحب سيفك. أشهر سيفك يا فيبوس حتى أراه..

فشهر الضابط سيفه باسما وهو يقول لها:

– يا لك من طفلة.

فنظرت الفتاة أولا إلى مقبضه، ثم إلى فرنده، ثم قبلت حده قائلة:

– أنت سيف رجل شجاع، وأنا أحبه لشجاعته.

فانتهز فيبوس هذه الفرصة وطبع على عنقها الجميل قبلة جعلت الفتاة تتراجع وقد اصطبغ وجهها بلون القرمز، وجعلت الأسقف يصرف بأسنانه في الظلام. ثم قالت الفتاة:

– فيبوس. دعني أتحدث إليك أولا. قم نمش قليلا حتى أرى طولك وأسمع رنين مهمازيك، لله كم أنت جميل!

فنهض الضابط ليؤدي هذه الضريبة على مضض، لأنها في نظره تتعلق بعاطفيات تافهة جدا ومعطلة لصميم الموضوع. فلما خطر أمامها قليلا عاد إليها فجلس بجوارها وقال:

– والآن اسمعي يا عزيزتي.

– كلا. سوف لا أسمع. هل تحبني؟ أريد منك أن تخبرني كم تحبني؟

فركع فيبوس على الأرض بركبة واحدة وقال.

– أتسألينني هل أحبك؟ أن دمي وروحي ومالي كلها رهن إشارتك. أني أحبك، ولم أحبب في حياتي كلها إلا أنت!

وكان فيبوس قد تعود إلقاء هذه الكلمات في مناسبات كثيرة من قبل، فأطلقها كلها في نفس واحد وبغير تلعثم، أما المسكينة فكانت تسمعها لأول مرة، فرآها الأسقف ترفع وجهها إلى أعلى بنظرة ملائكية تطفح بالبشر والحبور وقالت:

– سبحانك ربي! هذه هي الساعة التي يحلو بعدها الموت.

أما فيبوس فرأى أنها هي اللحظة التي تحلو عندها القبلة، فقطف من ثغرها قبلة مزقت أحشاء سيدنا الأسقف في الخزانة المظلمة.

وأحست الفتاة عندئذ بيده تعبث بحمالة صدرها من الخلف، فقالت بحدة:

– ماذا أنت صانع؟

– لا شيء. ولكني كنت فقط أرى أنه لا يحسن أن تظلي بهذه الملابس التي ترتدينها للجمهور وأنت جالسة معي.

– آه. وأنا جالسة معك يا حبيبي فيبوس!

ثم لم تبد بعد ذلك مقاومة أمام أصابعه التي بادرت إلى حل حمالة الصدر ثم الحزام، فانكشف لناظري الأسقف نحرها وكتفها العاري، كما يتكشف البدر الساطع من وراء الغمام، وتركته الفتاة يفعل ما يشاء، وهي كمن لا تشعر بما يقدم عليه، ثم التفتت إليه فجأة وهو منهمك في نضو بقية ملابسها عنها وقالت:

– فيبوس. علمني دينك.

فانفجر الضابط ضاحكا وقال:

– ديني؟ أعلمك ديني؟ وماذا تريدين بحق قرون الشيطان من ديني؟

– كي نستخدمه في إتمام زواجنا.

فبدت الدهشة الشديدة على وجه الضابط وقال:

– وهل في الحسبان زواج؟

فاكفهر وجه الغجرية، وسقط رأسها على صدرها فقال لها بحنان:

– يا حبيبتي. ما معنى هذا الهذر؟ إن الزواج شيء رائع طبعا. ولكن هل سيكون حبنا أقل روعة إذا لم يزمزم عليه قسيس ألفاظا لاتينية جوفاء؟

وكان يقترب منها ويزيد بها التصاقا وهو يقطر تلك الكلمات في أذنها، كأنها رقية ساحر.

وكان الأسقف يرقب كل هذا من مكمنه. والباب يسمح له بالرؤية الواضحة من خلال ثقبه الكبير. ولكنه كاد يصاب بالفالج في موقفه هذا الذي يرى فيه ابن آوى يهم بافتراس غزال بين سمعه وبصره.

وعلى حين غرة انتزع فيبوس حمالة صدر الفتاة، فنفر ثدياها لايقيهما من نظراته ومن يديه شيء، فارتاعت الفتاة كمن روعت من نومها، وتراجعت مبتعدة عنه، ثم غطت ثدييها براحتيها، وقد تضرج وجهها تضرجا شديدا وغضت طرفها إلى الأرض.

ولما تعرى صدر الفتاة انكشفت التعويذة المعلقة عليه، فتذرع فيبوس بالرغبة في معرفة كنهها، ومد يده، كي يلمسها من جديد فقالت: "لا تلمسها. فهي تعويذتي، وعن طريقها سأهتدي إلى أهلي إذا أنا صنتها من يد اللامسين، فدعني وحياتك يا سيدي الضابط".

فتراجع فيبوس وقال بفتور: "أنك لا تحبينني!".

– أنا لا أحبك؟ لا أحبك يا حبيبي فيبوس؟ ماذا تقول؟ أتريد أن تطعن قلبي في الصميم؟ تعال! اقترب! خذني! خذ كل شيء وافعل بي كما

تشتهي، فإني لك. فما قيمة التعويذة عندي؟ ما أمي وما أبي ما دمت أحبك؟ انظر إليّ يا فيبوس، أنا الفتاة الصغيرة التي وهبتك من تلقاء نفسها روحها وحياتها وجسدها. فهي كلها لك يا حبيبي، وليكن لك ما تريد. سأكون لك بغير زواج، ما دمت لا تريد زواجا. ثم ماذا أنا سوى فتاة وضيعة من عرض الطريق، أما أنت يا حبيبي فيبوس فرجل نبيل. وما كان أعظم جنوني حين خطر لي أن راقصة متجولة يمكن أن تتزوج ضابط. كلا يا فيبوس. سأكون عشيقتك، ولهوك، ولذتك، حين تشاء وكلما شئت. سأكون لك ولك وحدك. فلهذا دون غيره خلقت: للاحتقار والتدنيس، ولكن ماذا أيضا؟ للحب! وإذا شخت وذبلت محاسني فلا تطرحني بعيدا عنك، واسمح لي يا حبيبي أن أقوم على خدمتك مع مخطيتك الجديدة الشابة الحسناء. فأطرز لك الثياب وألمع مهمازيك وحذاءيك. أليس كذلك يا حبيبي فيبوس؟

ثم طوقته بذراعيها، ورفعت عينيها إلى وجهه متوسلة باسمة خلل دموعها تدعوه إليها. وشعرت بتطريز قميصه يحتك بعنقها الرقيق الناعم. ثم طبع الضابط المنتشي على شفتيها المتوهجتين بالحنين إلى الحب قبلة من شفتيه الملتهبتين، فشخصت بعينيها إلى السقف، وقد اختلج كل موضع في جسمها تحت وقع قبلاته.

وفي هذه اللحظة أبصرت فوق رأس فيبوس رأسا آخر، رأسا غريبا متجهما متقبض الأسارير شيطاني النظرات، وقد شهر في يده خنجرا مسنونا.

لقد كان هذا هو الأسقف كلود فرولو، وقد خرج من مكمنه في تلك اللحظة التي أطبق فيها فيبوس على فريسته وقد هم أن يلتهمها. فلم يكن في استطاعة فيبوس أن يراه. أما الفتاة فعقدت المفاجأة لسانها، وشلت حركتها، كما تشل حركة اليمامة فتحت عينيها في مطلع النهار لترى الأفعوان يحدق في وكرها بعينه الثاقبة.

ولم تدر إلا والخنجر يهبط كالبرق الخاطف ثم يرتفع وهو يقطر دما، ثم سمعت فيبوس يطلق صرخة مدوية ويسقط على الأرض. وغشي بعد ذلك عليها فغابت عن صوابها. ولكنها شعرت بشيء كجمرة النار تطبق على شفتيها. لقد كانت قبلة حارقة!

ولما ثابت إلى رشدها وجدت من حولها رجال الشرطة، وقد هموا بحمل الضابط الغارق في دمائه. أما الكاهن فكان قد اختفي. وأما النافذة المطلة على النهر فكانت مفتوحة على مصراعيها. ورأت رجال الشرطة يرفعون من على الأرض عباءة سوداء اعتقدوا أنها عباءة الضابط، ثم سمعتهم يقولون:

– لقد قتلت الساحرة ضابطا بطعنة خنجر.

محاكمة أزميرالدا

استولى القلق الشديد على جرنجوار وسائر سكان رحبة العجائب، فقد انقضى شهر كامل وهم يجهلون مقر أزميرالدا، فاستولى الحزن على دوق بوهيميا وأتباعه من الغجر. ولم يكونوا يعلمون أيضا مصير عنزتها الصغيرة، الأمر الذي جعل حزن بيير جرنجوار مضاعفا، فقد اختفت الفتاة الغجرية ذات مساء، ولم تصلهم منها أي إشارة تدل على وجودها على قيد الحياة وذهبت جميع وسائلهم في البحث والاستقصاء أدراج الرياح.

وفي ذات يوم، وقد خرج بيير جرنجوار على عادته منذ اختفاء أزميرالدا لتسقط أخبارها، ساقته قدماه عفوا أمام محكمة الجنايات، فلاحظ تجمع عدد كبير من الناس أمام أبواب قصر العدل، فسأل أحدهم.

– ما الخبر؟

– لست أدري يا سيدي. ويقال أنهم يحاكمون امرأة لقتلها رجلا من رجال الشرطة. ولما كانت في القضية عناصر تنسب إلى السحر والشعوذة، فقد تدخل المطران في القضية. بل أن شقيقي أسقف نوتردام لا هم له إلا التفكير فيها، وقد حضرت إلى هنا بغية مقابلته، ولكن زحام الناس في

القاعة حال بيني وبين الوصول إليه، مع أني في حاجة ماسة لمقابلته كي أحصل منه على شيء من المال.

– آسف يا سيدي، إذ ليس في وسعي أن أقدم لك يد المعونة، وإذا كانت جيوبي مثقوبة كما ترى، فليس ذلك من ثقل ما بها من النقود.

ولم يشأ جرنجوار أن يصارح الشاب بأنه يعرف أخاه الأسقف، ذلك أنه قصر في زيارته منذ اجتمع به في الكنيسة ذلك المساء على ما يعلم القراء.

وانصرف جيهان لحال سبيله، أما جرنجوار فصعد السلم المفضي إلى القاعة الكبرى، تلك القاعة التي شهدت أول مأساته في التأليف المسرحي.

ولم تكن به رغبة خاصة في مشاهدة تلك القضية، بيد أنه قدر أن محاكمة ساحرة متهمة بالقتل فيها ترويح عن نفسه مما يلاقيه من العناء والهم. وكان الناس يتدافعون بالمناكب مع التزام الصمت التام، فشق لنفسه طريقا بينهم حتى وصل إلى القاعة الرحبة التي يسودها الوجوم.

وسأل جرنجوار الشخص الذي وقف بجواره:

– من هؤلاء الجالسون هناك في صف عن يمين الرئيس؟

– هم يا سيدي المستشارون في المحكمة العليا.

– والصف الذي على اليسار؟

– قضاة التحقيق.

– وهذا الجالس في الصدر بوجهه الأحمر الضخم؟

– أنه سيادة الرئيس.

– وهذا الحلوف الوحشي الواقف أمامه؟

– أنه مسجل محكمة البرلمان.

– وعن يمينه، من هذا التمساح؟

– أنه المحامي العام.

– وعن يساره، من هذا القط الأسود؟

– أنه الأستاذ جاك شارموني، النائب العام لدى المحكمة الكنسية.

– وفيم اجتماع كل هؤلاء يا سيدي؟

– لمحاكمة شخص اقترف جريمة.

– لمحاكمة من؟ فلست أرى سجينا.

– أنها امرأة يا سيدي. ولا تستطيع أن تراها لأن ظهرها إلينا وقد حجبها عنا الجمهور.

– ومن هي هذه المرأة؟ أتعرف اسمها؟

– كلا يا سيدي. فقد وصلت من فوري. وكل ما أعرفه أن في القضية شيئا يتعلق بالسحر، ولهذا مثلت الكنيسة في الدعوى.

– لا بأس. فلنتفرج، ولن تخلو الفرجة من تسلية.

وفي هذه اللحظة أشار إليهما من حولهما بالصمت، فقد بدأت مرحلة مهمة من مراحل القضية، ووقفت في وسط القاعة امرأة عجوز فقالت:

– المسألة يا أسيادي كما قلت، وأنا متأكدة منها كتأكدي من أن اسمي فالورديل. وقد عشت في بيتي هذا قرب قنطرة القديس ميشيل اربعين سنة، كنت أؤدي فيها الإيجار بانتظام، وكذلك العوائد وجميع الضرائب. وأنا الآن امرأة عجوز، ولكني كنت فيما مضى صبية منظرانية يا حضرات القضاة.

فقال الرئيس مقاطعا:

– اذكري أقوالك للمحكمة.

– سمعا وطاعة أيها السادة. في ذات ليلة كنت أغزل في داري، فسمعت طرقا على الباب. ففتحت ورأيت رجلين، أحدهما ضابط جميل الصورة، والآخر رجل ملتف في عباءة سوداء لا يتبين الناظر شيئا من ملامح وجهه سوى عينين كأنهما جمرتان متقدتان. أما سائر شكله فعباءة فضفاضة وقبعة عريضة، وقالا لي: "نريد حجرتك العلوية"، وهي خير

حجرة عندي يا حضرات السادة. وأؤجرها لمن شاء من حضراتكم بريال في الليلة واسمي فالورديل، وكل من في منطقة قنطرة القديس ميشيل يعرفونني. اسأل فقط عن الحجوز فالورديل. وأخذت الريال مقدما، فأنا آخذ الإيجار مقدما يا حضرات السادة. ووضعته في درجي، وصعدت معهما. وهناك اختفي ذو العباءة السوداء. فأدهشني ذلك قليلا، ولكني لم أتكلم، ثم نزل الضابط الجميل معي ثانية وغادر البيت. فقلت لعله ذهب يشتري شيئا، ولم يلبث أن عاد بعد ربع ساعة وفي صحبته فتاة جميلة في مقتبل العمر. جميلة كالشمس في أوج بهائها، ولو وجدت من يرجل شعرها كما ينبغي لما صمدت لمنافستها امرأة في باريس كلها، وكانت معها عنزة كبيرة، ليست أذكر الآن هل كانت عنزة بيضاء أو سوداء. فرحت أفكر في قلق، لا في الفتاة طبعا، فأمرها لا يعنيني، بل في تلك العنزة. فقد كانت تشبه الإنسان في كثير من الأشياء، ولاسيما بلحيتها! ومع ذلك فلم أتكلم، لأنني كنت قد قبضت الريال. وهذا هو العدل يا حضرات السادة، فإني امرأة عادلة في معاملتها، ومتى قبضت الريال أدع عملائي يفعلون ما يشاؤون. ولذلك صعدت مع الضابط والفتاة والعنزة إلى الغرفة العلوية وتركت الثلاثة وحدهم ونزلت. وأحب أن أذكر لكم أن نافذة بيتي الخلفية تطل على النهر.

– وماذا فعلت بعد نزولك يا امرأة؟

– عدت إلى مغزلي كأي امرأة صالحة. ولكن لست أدري لماذا ظل ذهني مشغولا بالعنزة وبالرجل الغامض ذي العباءة السوداء. وفجأة سمعت

صرخة صادرة من الطابق العلوي، ثم صوت سقوط شيء على الأرض، وصوت فتح النافذة، ففتحت نافذة الطابق السفلي، وهي أيضا تطل على الماء، فرأيت كومة سوداء تسقط في النهر، وتراءى لي في ضوء القمر أن الساقط كان في صورة قسيس أخذ يسبح متجها نحو المدينة. فخرجت إلى الشارع صارخة حتى أقبل البوليس، والباقي تعرفونه أيها السادة. فقد وجدنا الضابط الجميل غارقا في دمائه من أثر طعنة خنجر، والفتاة ممزقة الثياب وقد تصنعت الموت. ولكن أسوأ ما في الأمر يا حضرات القضاة أنني حين بحثت عن الريال في درجي في اليوم التالي، وجدت في مكانه ورقة شجر جافة. لقد كان ريالا مسحوراً.

فعلت الهمهمة بين الحاضرين في الجلسة، وآمنوا كما آمن القضاة والمستشارون أن المسألة كلها سحر من تدبير الشيطان بالاتفاق مع الغجرية الصغيرة.

وعندئذ وقف الأستاذ جاك شارموني النائب العام فقال:

– وأحب أن أذكر للمحكمة أن ورقة الشجر هذه كانت ورقة لبخ. وذلك دليل إضافي على استعمال السحر ضد الضابط فيبوس دي شاتوبير.

وما أن سمعت المتهمة اسم فيبوس، حتى وقفت وراحت تحدق فيما حولها ببصر رائع قائلة بصوت يهز المشاعر:

– فيبوس. أين هو؟ بالله أيها السادة قبل أن تقتلوني خبروني أنه لا يزال على قيد الحياة، وبعد ذلك اقتلوني..

فلما وقفت وتكلمت عرفها جرنجوار. ولكنه رآها كالهيكل العظمي صفراء الوجنتين زرقاء الشفتين غائرة العينين.

وأجابها النائب العام:

– اخرسي! أنه يموت..

فارتمت على مقعدها ولم تنطق، وقد جمد الدمع في عينيها، وقال الرئيس:

– أيها الحاجب، أدخل المتهمة الثانية.

وكانت المتهمة الثانية هي جالي، بقرونها وأظلافها المذهبة.

ولا تدهش أيها القارئ. فلم يكن أشيع في ذلك العصر من محاكمة الحيوانات بتهمة السحر والشعوذة.

وعرضت العنزة ألعابها، كما كانت تعرضها بصحبة أزميرالدا، بإشارة وتوجيه من سعادة النائب العام، فقر في أذهان القضاة والمشاهدين أن بها مسا من الشيطان.

وأخيرا وجه الرئيس الكلام إلى أزميرالدا قائلا:

– أيتها الفتاة. أنت غجرية من سلالة اشتهرت بالسحر، وأنت متهمة بالاشتراك مع عنزتك المسحورة بأنك في ليلة **٢٩** مارس الماضي قد طعنت بالخنجر، وآذيت بالأساليب السحرية ضابطا من قناصة الملك، اسمه فيبوس دي شاتوبير، فهل تصرين على الإنكار؟

فغطت الفتاة وجهها بيديها وصاحت:

– فيبوس؟ إن هذا لفظيع.

– هل تصرين على الإنكار؟

– نعم.

– إذن بماذا تفسرين الوقائع المنسوبة إليك؟

– سبق أن ذكرت لكم أنني لا أدري. فالجاني قسيس لا أعرفه، قسيس شيطاني جهنمي دأب على تعقبي ومطاردتي.

ووقف الأستاذ جاك شارموني النائب العام فقال:

– بالنسبة لإصرار المتهمة على الإنكار، ألتمس استعمال التعذيب فقال الرئيس بهدوء ووقار:

– قررت المحكمة إجابة هذا الطلب.

* * *

ونقلوا أزميرالدا من قاعة المحكمة إلى حجرة التعذيب، عن طريق سراديب مظلمة وسلالم صاعدة وهابطة، إلى أن دفع بها الحراس آخر الأمر، فإذا بها في غرفة رهيبة، دائرية الشكل، كانت تحتل الطابق الأرضي من أحد أبراج قصر العدل.

وتلك الغرفة خالية من النوافذ، لا يدخلها ضوء الشمس. ولكنها في هذه اللحظة لم تكن بحاجة إلى ضوء. فقد كان في فجوة أحد جدرانها أتون مشتعل تتراقص فيه ألسنة النار، وقد رفع عنه غطاؤه، وحميت فيه قضبان من الحديد وكلابات.

وأبصرت الفتاة على وهج النيران أدوات عجيبة الشكل متناثرة في الحجرة، فلم تعرف لوجودها معنى. وكان في وسط القاعة كرسي من فوقه حزام من الجلد متصل بحلقة في السقف، فشعرت الفتاة بخوف لا مزيد عليه، واصطف الحراس بجوار الحائط. أما كاتب المحكمة فجلس إلى مكتب صغير في الركن، ووضع أمامه القلم والأوراق.

وأقبل النائب العام الأستاذ جاك شارموني، فهو الذي سيتولى استنطاق المتهمة عن طريق فنون التعذيب المختلفة، فدنا منها وقال باسما:

– والآن يا بنية، هل تصرين على الإنكار؟

– نعم.

– إذن فلابد مع الأسقف الشديد من حملك على الاعتراف بطريقة لم نكن نود اللجوء إليها. والآن اجلسي فوق هذا الكرسي.

ثم التفت إلى الجلاد وقال له:

– أجلسها بنفسك، وأغلق الباب.

فقال الجلاد:

– إذا أغلق الباب انطفأت النار.

– لا بأس، دعه مفتوحا إذن.

وبإشارة من الأستاذ جاك، انقض اثنان من مساعدي الجلاد عليها وربطاها في المعقد.

وعندئذ عاد النائب العام إلى سؤالها:

– والآن أسألك قبل أن يبدأ التعذيب، هل ما زلت مصرة على الإنكار؟

فهزت الفتاة رأسها وقد جف ريقها فلم تستطع الكلام. فصاح عندئذ النائب العام في لهجة الرجل الطيب المكره على ما لا يحب:

– أتصرين؟ لا حيلة لي إذن في القيام بواجبي.

ثم التفت إلى كبير الجلادين وقال له:

– أبدأ بالكي.

ورمق الفتاة بنظرة جانبية، فوجدها مستسلمة لا تبدي حركة، وقد سقط رأسها فوق صدرها كأنها خرقة بالية.

وتقدم نحوها كبير الجلادين، في حين انصرف المساعدان إلى البحث في الأتون عن المكاوي المطلوبة. فكان صليل تلك الأدوات الحديدية كافيا في حد ذاته لبث الرعب في قلبها، ثم أغمي عليها.

وشرع المساعدان يكشفان عن إحدى ساقيها الممشوقتين الرخصتين. ووقف كبير الجلادين يحدق في تلك الساق التي كأنها برعم وردة ناضرة، وهز رأسه أسفا.

وفي اللحظة التالية شعرت أزميرالدا بألم هائل، فصرخت منتحبة وهي تهم بالقيام:

– الشفقة! الرحمة!

وأشار الأستاذ جاك بيده، فأحاطوا خصرها بذلك الحزام المدلى من السقف، ثم قال الأستاذ جاك بعدئذ:

– والآن أسألك للمرة الأخيرة، هل تعترفين؟

– اقسم لك على براءتي.

– فبماذا تفسرين كل هذه القرائن؟

- لا أدري يا سيدي للأسف الشديد.

- أنت إذن متشبثة بالإنكار.

- إني بريئة.

فالتفت الأستاذ جاك إلى كبير الجلادين، فأدار عجلة صغيرة، فأخذ الحزام يضيق حول خصرها إلى أن أطلقت صرخة مدوية، فصاح شارموني بالجلاد:

- حسبك.

ثم التفت إليها وسألها هل تعترف، فصرخت:

- نعم. كل ما تريدون أوافق عليه، فارحموني.

- ولكن أرى من واجبي أن أنبهك إلى أن اعترافك هذا سوف لا ينجيك من الموت.

- سيدي. وهل لي مطلب سوى الموت؟

- هل تعترفين أنك استعملت السحر واتصلت بالشياطين والأرواح النجسة؟

- نعم.

- وبأنك متحالفة مع الشياطين التي تتقمص عنزتك؟

- نعم.

- وهل تعترفين بأنك بالاتفاق مع الشيطان أقدمت على قتل الضابط فيبوس دي شاتوبير في مساء يوم ٢٩ مارس؟

- نعم.

فالتفت النائب العام إلى كاتب الجلسة قائلا:

- هل سجلت كل هذه الاعترافات؟

- نعم يا سيدي النائب العام.

- إذن أطلقوها. وأعيدوها إلى قاعة المحكمة.

* * *

وأعيدت الفتاة إلى قاعة الجلسة، في خطوة عرجاء، وسحنة صفراء ونظرة زائغة. فتلقاها الجمهور الذي كان ينتظر عودتها على أحر من الجمر باهتمام شديد، أما جالي فأعلنت عن شعورها بوصلة طويلة من الثغاء.

وكان الليل قد بدأ يطبق على باريس، والشموع التي أوقدت في القاعة الكبرى لا تكفي لتبديد الظلام. فزاد ذلك من رهبة القاعة ووجومها.

ودنا الأستاذ جاك شارموني النائب العام من المنصة وقال:

– سيدي الرئيس. أن المتهمة قد اعترفت اعترافا كاملا بما نسب إليها.

فالتفت الرئيس عندئذ إلى أزميرالدا وسألها:

– أيتها الغجرية. هل صدر منك اعتراف بكل ما وجه إليك من اتهام باستعمال السحر والاتصال بالشياطين والأرواح النجسة، وبالقتل؟

فسمع الناس في أرجاء القاعة صوت بكائها، فلما استحثها رئيس المحكمة بصوته الفاتر الوقور على الجواب، قالت بصوت متحشرج:

– اعترف بكل ما تريدون مني أن اعترف به، وليس لي إلا مطلب واحد.

– ما هو؟

– أن تعجلوا بموتي.

فساد القاعة صمت رهيب، واتجه سعادة الرئيس إلى الأستاذ جاك شارموني فقال:

– مرافعة النيابة العامة لدى المحكمة الكنسية.

فأخرج الأستاذ جاك من جعبته أوراقا كثيرة، ثم راح يتلوها بصوت حاد، وبأسلوب ركيك، ولا نظن أنه كان يعي حرفا من نصوصها اللاتينية،

وأكبر الظن أن الرئيس لم يلق إليها بالا، فكل ما اهتم به هو الطلبات التي ختم بها النائب العام مرافعته المسهبة:

– ليس من دليل يا حضرات القضاة على الصلة والتواطؤ بين المتهمة وبين إبليس أبلغ مما ترونه بأعينكم من حضوره إلى ساحتكم ليسخر من هيئتكم الموقرة.

وأشار بسبابته إلى جالي، التي كانت على عادتها في عرض ألعاب التقليد قد شرعت في محاكاة حركات الأستاذ جاك. وعسى أن يذكر القراء أن تقليد الأستاذ جاك كان من النمر الطريفة التي يعجب بها كل من شاهدها من قبل. أما الآن فقد جاءت تلك النمرة دليلا قاطعا ضدها وضد صاحبتها.

أما الطلبات، فكانت تغريم المتهمة، ثم تعذيبها علنا في ساحة الاعتصاب أمام باب كنيسة نوتردام حيث كانت تعرض ألعابها الشيطانية ورقصاتها الفاجرة، ثم إعدامها شنقا في ذلك الموضع نفسه.

وتداول القضاة مع رئيسهم لحظات، ثم نطق الرئيس بالحكم التالي:

– أيتها الغجرية. حكمت المحكمة بما طلبته النيابة العامة، على أن تكفري عن إثمك أمام كنيسة نوتردام ثم تشنقي علنا في ساحة الاعتصاب حتى الموت. وكذلك تشنق العنزة الجهنمية حتى الموت. وعسى أن يتولاكما الله برحمته ويغفر لكما.

ودّعوا آمالكم

جرت عادة أهل القرون الوسطى إذا شادوا بناء من أبنيتهم الضخمة أن يجعلوا ما تحت الأرض منه مثل ما فوقها. فإذا كان البيت من بيوت الله، كانت فيه كنيستان، كنيسة تستقبل السماء بأبراجها، وأخرى من تحتها غائرة في الأرض، تضيئها الشموع ليلا ونهارا، وتتصاعد منها أنغام الأرغن مسبحة بحمد الله وآلائه، وإذا كان البيت حصنا أو سجنا، كان ما تحت الأرض سجنا أو اتخذوه مقبرة للموتى. وكثيرا ما كانت المقبرة والسجن تختلطان، فيبقى السجين في جوف الأرض منسيا حتى تضمه الأرض إليها ميتا.

وكان قصر العدل في باريس من الأبنية التي روعيت فيها هذه السنة، فمن حوكم في قاعتها الكبرى وخرج منها مذنبا، غاص في أعماقها السفلية، حيث السجن زنزانات متفرقة، طبقات تحتها طبقات في باطن الأرض، وكأنما كتب بلسان الحال على باب هذا السجن ذلك الذي رواه دانتي عن باب الجحيم الإلهي:

"أيها الداخلون! ودعوا آمالكم جمعاء".

فمن دخل هذا السجن انقطع عهده بالنور وبالحياة وبكل أمل في العودة إليها. وقد ينسى المذنب في هذا التيه الأرضي، فلا يخرج بعد أجل، ويقال حينئذ بلغة العدالة الأرضية أنه مذنب منسي.

وإلى جوف ذلك الجب زج بأزميرالدا، فانقطع عهد هذه الفراشة التي طالما رفت بين الهواء والنور والأقحوان بكل ما هو حبيب إليها، وابتلعتها ظلمات ذلك القبر الحي.

وكأني بهم لم يروا في تلك الأكداس الهائلة من صخر الجدران والأبواب ذات القضبان ضمانا كافيا لاستكانة هذه الفتاة الرقيقة الواهنة، فأوثقوا يديها بالأغلال وهي قيود من الحديد ثقيلة، مثقلة بكرات ضخمة من الحديد المصبوب.

وفي ذلك الجحر وجدت المسكينة كومة من القش القذر المتعفن في ركن بين الأركان فتهاوت فوقها، لتجد الماء قد نز منها لشدة الرطوبة.

وصعدت الدموع إلى مقلتيها، فهمت أن تطلقها، عسى أن يكون لها في مسيلها راحة، لكن دموعها خذلتها، وبقيت معلقة بين أجفانها.

وابتدأ موكب العذاب يطيف بذهنها، حلقات من ذكريات ماضيها القريب تتوافد تباعا، وكأنها شياطين من الجن يخزها كل واحد منها بحربة محماة في نار الجحيم.

وذكرت أول ما ذكرت أيامها المشرقة، وأشد ما فيها إشراقا طلعة فيبوس، ونور الشمس، ونسمة الهواء، وانطلاقها في فضاء الله راقصة على سجيتها بين آلاف من الخلق يحدجونها بنظرات الإعجاب، ويصفقون لها ولعنزتها الصغيرة جالي.

وذكرت بعد ذلك ليلة الاختطاف، ويوم الوصال وما علقت على لذته من آمال. ثم بيت العجوز على شاطئ النهر، ثم القسيس الغامض وفي يده الخنجر، ثم المحاكمة القاسية وغرفة التعذيب وأتون النار وأدوات العذاب.

تراقص أمام عينيها في ظلمة سجنها الرطب كل هذا، فلم تكن ذكرياتها العذبة أرحم بها من ذكريات العذاب. فكل عذب تخيب فيه الآمال، ينطوي الصدر منه على حسرة موجعة ومرارة. وكل خسارة ووبال يثقل على النفس، لأنها ترى حاضر مآلها نتيجة لتلك الكوارث التي سبقت واصطلحت عليها.

ولم يغمض للمسكينة جفن في ليلتها، بل أنها لم تعرف في سجنها ليلا من نهار، فلا نور ولا إشراق. فلا فرق بين صبح ومساء، ولا بين يقظة ومنام. فالأطياف تراودها والحقيقة أشد عجبا من أضغاث الأحلام.

وذات مساء، أو لعله ذات صباح، انتبهت المسكينة من شرودها على صليل من جهة الباب، ذلك الباب الذي لم يكن أمامها، بل كان فوق رأسها، فرفعت عينيها لترى بصيصا من الضوء عشيت له عيناها فأغمضتهما، لتفتحهما بعد حين، فإذا الباب قد أغلق بالرتاج، وإذا المصباح قريب منها فوق أرض السجن.

وفي نور تلك الذبالة التي تراءت لها– لطول ما افتقدت النور– سراجا وهاجا، أبصرت شخصا متشحا بنقاب اسود، وقد حجب وجهه

بقبعة عريضة. فتفرست في وجهه، وتفرس في وجهها وقد جمدا في مكانيهما، فكأنهما في ذلك القبر الرطب وهذا الضوء الخافت شبحان من عالم آخر التقيا في ظروف حافلة بالأسرار.

وشقت أزميرالدا حجاب الصمت فسألته: "من أنت؟".

فأجابها الزائر الملثم:

– أنا قسيس جئت كي تفضي إلي باعترافك الأخير، وأطلب لك مغفرة الله التي تسع لكل شيء على ما أسلفت من ذنوب وآثام.

وكان في صوته شيء رهيب ارتعدت له أوصالها. واستطرد بعد لحظة: "أمتأهبة أنت؟". فقالت: "متأهبة لأي شيء؟".

– للموت.

فأشرقت في قلبها بارقة سرور وأمل وسألته: "ومتى ذلك؟".

– غدا، عند الظهر.

– غدا؟ ولماذا غدا؟ لماذا لا ترحمونني فتقتلونني اليوم؟

فسكت القسيس قليلا ثم قال: "أشقية أنت إلى هذا الحد؟"

فضمت ركبتيها بين يديها، وقالت: "ألا ما أشد البرد هنا".

فدار القسيس بعينيه في أرجاء المكان ثم قال:

– لا نور ولا نار ولا هواء.

– أجل.. إن كل إنسان يستمتع بالنور والهواء. فلماذا تحبسونني في الظلام؟

فسكت القسيس مرة أخرى إلى أن استحثته قائلة: "لماذا؟"

– ألا تعلمين لماذا أنت هنا؟

فمرت بيدها على جبهتها وقالت: "لا أدري!"

ثم انطلقت تنتحب، ورفعت إليه أكف الضراعة قائلة:

– أخرجني يا سيدي من هذا المكان، فإني أكاد أموت بردا وفزعا. فأمسك بمعصمها وقال لها بصوت أجش: "إذن هيا معي".

فسرت في جسمها قشعريرة للمس يده، وهتفت به:

– ولكن من أنت يا سيدي؟

فرفع طرف قبعته وأزاح اللثام عن وجهه، فعرفت فيه ذلك الشبح الجهنمي الذي ظهر فجأة في لحظة الوصال فطعن حبيبها بالخنجر ثم ألقى بنفسه في النهر، فتراجعت إلى الوراء ورفعت يديها كأنما تذود عن نفسها شرا داهما وقالت: "أهو أنت؟"

ثم سقطت على الأرض خائرة القوى وغمغمت:

– الآن حل دوري، فاقتلني أنا الأخرى.

وتريثت تنتظر المصير الذي لم تشك فيه، ولكنه قال بعد برهة:

– أتفزعين مني؟

– أتسخر مني يا سيدي؟ لقد تراءيت لي في كل مكان، وجعلت تتعقبني منذ شهور وشهور.. وبجرائر فعلتك نزلت بي الكوارث، ودفعت بي إلى الموت بعد أن حرمتني لذة الحياة حين قتلت فيبوس الجميل.

وانطلقت تنشج وتصرخ: "من أنت؟ ولماذا تعذبني وتضطهدني؟"

– لأني أحبك.

فذهلت الفتاة، ووقفت الدموع في مآقيها حائرة، وهي لا تصدق أذنيها، فهل يمكن أن يكون الحب وهو أجمل وأرق ما في الحياة، سبيلا لكل هذا العذاب والشر؟

ولم يمهلها الأسقف، بل قال لها:

– لقد جئت اسمع اعترافك.. ولكنك ستسمعين الآن اعترافي. وسأفضي إليك بما ظل مكنونا في أعماق صدري فلم أصارح به أحدا حتى نفسي. لقد كنت يا فتاة من أسعد الناس قبل أن أراك.

فتأوهت المسكينة وقالت: "وأنا أيضا.. ما كان أسعدني".

– رويدك، ولا تقاطعيني. لقد كنت سعيدا كالملائكة، طاهرا كالأطفال، لا يندي جبيني لمعصية ولا يلين جانبي لغمزة. وكان كل همي في الحياة محصورا في العلم والفن، واستطعت منذ يفاعتي أن أتغلب على نزوات الهوى والعواصف التي تعصف بكيان الشبان فلا يستطيعون لها دفعا ولا لجماحها ردعا. وكانت الصلاة ملاذي، وكان الصوم والنسك عياذي، وكان الدرس والتعمق في الاطلاع موئلي، فمرت مرحلة الشباب الباكر في سلام، ولم تعلق بصحيفتي شائبة من أدران الإثم والرذائل. وبذلك قهرت إبليس في الجولة الأولى، مع ما كان يحاربني به من وسائل جهنمية، فيزين لعيني النساء اللواتي يحضرن للصلاة في الكنيسة، أو أمر بهن في الطرقات، أو يطوف خيالهن بمخيلتي وأنا بين جدران صومعتي الأربعة.

وعندئذ تنفس الأسقف نفسا عميقا، ثم استطرد:

– وذات يوم قهرني الملعون بعد أن ظننت أن عهد النزوات والأهواء الجامحة قد مضى وانقضى. أطللت من نافذة صومعتي على ساحة الاعتصاب، لقدر قدره الله سبحانه في سابق علمه، فرأيت ما لم تره عين بشر، وما لم يخلق إلا لاجتلائه البصر.. أبصرت في تلك الساحة أنسية في مقتبل العمر ترقص على توقيع دف صغير رفعته فوق رأسها. وكأنما كانت هذه الراقصة تمثالا للجمال الأسمى، اجتمعت فيه كل مزايا الحسن والرشاقة. فعيناها واسعتان تفيضان سحرا وصفاء، ولمتها السوداء تأتلق في شعاع الشمس. وغلالتها الهفهافة المزركشة بالأزاهير كأنها قطعة من روض الجنان، أما قدماها فلا تراهما العين لشدة انطلاقهما في حركة دائبة كأنها

إعصار. وبهت، فقد بهرني منظرها حتى لقد شلت جوارحي وانتشت جوانحي فلم أستطع عنها حولا. وعبثا رحت أذكر نفسي أن الشيطان فاجر ماكر، وأن هذا الجمال الذي أراه لا يستمد إشراقه من نور الله، بل هو ومضة من نار الجحيم التي اتخذها الشيطان له مستقرا، وخرج يتصيد لها وقودا من عباد الله، فأتقاهم هو أحبهم إلى إبليس أن يتخذ منه أسيرا يدخله مملكته ويوقد به نار جهنم!.. وأيد هذه المخاطرة أنني رأيت مع تلك الراقصة الصغيرة عنزة. وكنت أعلم من قراءتي في كتب الأقدمين أن العنزة من أدوات السحرة، الذين يعقدون المعاهدات مع الشياطين ويستعينون بهم على الإيقاع بعباد الله الصالحين، فقر في نفسي أنك أحبولة مدها الشيطان ليتصيدني كما طالما تصيد الصالحين من عباد الله المؤمنين. ورسخت في نفسي هذه العقيدة، بل أني يا فتاة ما برحت على هذا الرأي، فكل يوم ازداد به اقتناعا. فأي شيطان يبلغ بفعله وسحره فعلك في نفسي وسحرك؟ وأي دوامة من صنيعة إبليس تغرق الحس والعقل كما يغرقني انثناء جسمك اللدن ودوران بدنك الرخص، فكل حركة فيك فتنة لي، وكل أنملة من بدنك عذاب لي. وهكذا قضى الأمر وألفيت نفسي إنسانا منوما مغلوبا على أمري في تيار نشوتك القاتلة. ثم سمعتك يوما تغنين، فكان صوتك أعمق في نفسي أثرا من سحر رقصك وإغراء تثنيك. وبذلك تم خسراني، وغرقت في حمأة الشهوة، وخرجت مطرودا من ملكوت الله.

وتأوه الأسقف عندئذ عن كبد مقروح ثم أنشأ يقول:

– وأحسست بهدي عقلي أن ألسنة نار جهنم قد أحدقت بي، فصرخت في أعماق الهاوية أدعو الله أن يدركني، ولا يتخلى عني. ورحت افتح الكتب المقدسة كي أغرق فيها متاعب عقلي المضطرب وزوابع نفسي الثائرة.

ثم حدجها الأسقف بنظرة ملتهبة كمن يهم بافتراسها، وقال:

– أتعلمين ماذا كنت أرى في صفحات الكتاب المقدس؟

– ....

– تسكتين؟ أنت تعلمين ماذا كنت أرى! كنت أنت التي أرى، وقد طغت كل ثنية فيك على أحرف كلمات الله، وغطى كل نتوء على كل آية من آيات حكمته. وطمس ظللك وأنت ترقصين كل نور ينبعث من وحيه وإلهامه، ولما كنت أرفع صوتي مستعيدا من الذاكرة شيئا من آيات كتاب الله، كان صوت غنائك يا فتاة يطغى في مسامعي على صوتي، فقلت في نفسي: ابحث عنها، وأراها عن كثب، فلابد أنها ككل إنسان تشوبها شائبة تنتقص من جمالها الذي يمثله الوهم لي كاملا لا يعرف النقصان. ورأيتك عن كثب، وتعقبتك وأنت ترقصين في الشوارع في الصبح تارة وفي العصر تارة، رأيتك في وهج الضحى وفي ذهب الأصيل فلم أذمم لك ضوءا ولا ظلا، وحمدت فيك كل ما رأت عيني، وكل ما سمعت أذني، وكل ما انطبع في قلبي من صورتك ساكنة وثائرة، وواقفة وسائرة، وجادة ولاعبة، وضاحكة وغاضبة. لم أجد فيك نقصا يعاب، ولا كلفا يخدش هذا البهاء،

وكأنما كان ذلك الامتحان بابا جديدا من أبواب اللعنة، وسببا آخر من أسباب المحنة، فأصبحت مدمنا لا يهدأ لي بال حتى أراك، وبذلك صرت تريني كالشبح الذي يطاردك.

– ولكنك كنت تخيفني بنظرات حقدك.

– وكيف لا أحدق عليك أيتها الغجرية بعد أن تحققت من سحرك وخبرته في نفسي، وقررت أخيرا أن أختطفك، وأوشكت أن أضع يدي عليك، لولا ذلك الضابط الذي انشقت عنه الأرض كي ينتزعك مني.

وسكت الأسقف بعد ذلك لحظة، وقد زاغت عيناه، ثم قال:

– وأسقط في يدي، فلم يعد لي غنى عنك، كان لابد أن أصنع شيئا يقطع ما بيني وبينك ما دمت لا أستطيع أن أصل ما بيني وبينك. فدبرت مع صديقي النائب العام لدى المحكمة الكنسية أمر محاكمتك بتهمة السحر والشعوذة، كي تكوني في السجن تحت يدي، ويكون في الوقت نفسه بإمكاني أن أوقف إجراءات القضية في أي لحظة، لأنها قضية دينية. ولكن كان مكتوبا في لوح القضاء أن يحبط تدبيري، ويتجه بي تيار الحوادث اتجاها آخر، فقد اعترض ذلك الضابط طريقي مرة أخرى.. فانتهى على الوجه الذي تعلمين.

وسكت الأسقف، فساد صمت القبور مرة أخرى، إلى أن شقت حجابه آهة أطلقتها الفتاة قائلة: "لهفي عليك يا فيبوس".

فأنشب الأسقف أظافره في ذراعها وهزها صائحا:

– صه! لا تذكري هذا الاسم على لسانك، فإنه هو الذي أضاعنا كلينا. أتبكين؟ قد علمت أنك تعانين العذاب، وقد علمت أن ظلمة هذا القبو تطمس بصرك. ولكن عزاءك أن وميضا من نور الذكريات السعيدة يلوح في أعماق نفسك، أما أنا، فواها لي! إن السجن الذي في نفسي أحلك من هذا السجن ظلمة، وهناك الوحشة وصرير الأسنان.

وتمهل قليلا ثم أطلق ذراعها وقال بأناة:

– آه لو تعلمين كم برحني العذاب بعد تلك الليلة، لقد حضرت محاكمتك، ورأيت بعيني رأسي عذابك وأنت مقيدة في ذلك المقعد الرهيب، ورأيت مكاوى الحديد المحماة تنطبع على هذه الساق التي طالما ذابت نفسي حسرات ووددت لو أشتري لثمة منها بخير سنوات عمري. فلما سمعتك تصرخين، غاصت أظافري في لحم صدري حتى تمزق.

ثم أماط رداءه عن صدره، فإذا هو ممزق دام، فصرخت الفتاة مروعة لما رأت، فغطى عندئذ صدره وقال:

– وما ذاك؟ لقد نهشت سباع الغيرة وعقارب الإثم وأفاعي الشهوة شغاف قلبي بأبشع وأقسى من هذا الذي رأيت بمراحل. إلا رحمة بي يا بنية، فلئن زين لك الوهم أنك أشقى من حملت الأرض على وجهها، فإنني لأشقى منك لو تعلمين مرات ومرات. أو تدرين يا فتاة ما الشقاء بمعنى كلمة الشقاء؟ أنه أن يكون الإنسان إنسانا ولا إنسان، ورجلا مكفوفا عن

مصائر الرجال، فيحب ولا ينال، ثم يخسر دينه في سبيل لذة الوصال، فلا يلقي بعد خسرانه منها إلا الصدود والنكال، ثم يراها بعد ذلك وهي معبودته المقدسة، تضع كنز حسنها طواعية تحت قدمي وحش ليفترسه، بل ليلوثه ويدنسه، وهي قريرة العين راضية الفؤاد. فأي عذاب لذلك العابد الذي كفر بالإله المعبود، ليخسر بعد ذلك دينه ودنياه، ويتلظى بعذاب في حياته وأخراه!

وجثا بعد ذلك على ركبتيه أمامها، والتمس بجبينه قدميها ليعفر بالتراب الذي تدوس عليه هامته وهو يصرخ:

– رحمة بي يا بنية، وارفعي عني مقتك وعذابك.

وسكتت الفتاة لحظة طويلة ثم تأوهت بصوت ضعيف:

– لهفي عليك يا فيبوس!

فصرخ الأسقف وهو راكع تحت قدميها:

– ألا ترحمين عذابي؟ أن هذا الاسم يمزق شغاف فؤادي، لقد خسرت روحي وحياتي الأخرى من أجلك. فلماذا تشقين وأشقى؟ هيا نحيا معا وننعم بالسعادة بعد الذي عانيناه من عذاب شديد.

وصمتت الفتاة لا تحير جوابا فعاد يقول:

– كلمة واحدة تقولينها، فأخرج بك الآن من هنا، وفي فجاج الأرض متسع في فضاء الله، حيث الهواء والشمس والزهر والحب.

فأطلقت الفتاة ضحكة كأنها صرخة وصاحت به: "انظر يديك اللتين ترفعهما إلى متوسلا، ألا ترى عليهما أثر الدماء؟"

– أتهزئين بي، أم بالهوى، أم بالموقف النكد؟ بل بنفسك تهزئين. فغدا يا فتاة تشنقين. لقد نصبوا لك المشنقة حيث كنت ترقصين.

وهجم عليها، كمن يريد أن يضمها إليه عنوة وقال:

– بل تعالي معي، ولو كرهتني، فلا ينبغي أن تموتي.

فتراجعت ورشقته بنظرة ثاقبة وقالت: "وفيبوس يا أبتاه؟"

فصاح الأسقف وقد كاد يجن: "أصخرة أنت لا يحركها شيء؟"

– فيبوس يا أبي، ماذا حدث له؟

– مات!

– مات؟ وفيم حياتي إذن؟

– لقد مزق خنجري قلبه الداعر، كما مزق بفسوقه قلبي.

وعندئذ هجمت عليه أزميرالدا كما تنقض لبؤة على قاتل أشبالها:

– اغرب عن وجهي أيها السفاح! اذهب وعش لشقائك وعذابك، واتركني لراحة الموت، وليكن دم فيبوس ودمي على رأسك الدنس! ها ها ها! أتريدني لنفسك بعد أن قتلت فيبوس؟

ثم سقطت مغشيا عليها.

ولكن فيبوس لم يمت فأمثاله من الرجال تحبوهم الطبيعة بحيوية خارقة، وتدللهم تدليلا لا يعرف له سبب، فإن التقارير الطبية كانت تقطع بأنه ميت لا محالة. بيد أن بضعة أسابيع من الراحة كانت كافية لالتئام جرحه، وكانت العدالة في تلك الأيام لا تدقق كثيرا في تحديد الجرائم. كما أنه شخصيا لم يكن تواقا إلى افتضاح صلته بهذه القاتلة، ذلك أنه اعتقد أنها هي التي قتلته أو شرعت في قتله، ثم أنه مما يشين أبناء البيوتات أن تلوك الأفواه أسماءهم في مثل تلك القضايا الفاضحة.

وهكذا نفض فيبوس الجميل أزميرالدا من ذهنه، وأحس الفراغ فعاد إلى خطيبته يخطب ودها بعد تلك الغيبة الطويلة التي استغرقها مرضه، وكانت خطيبته لا تعلم أنه مريض، لتحريه كتمان الموضوع، فزعم أنه كان منتدبا خارج باريس.

وذات صباح من أوائل شهر مايو توجه لزيارة فلور دي ليس، وشعر بحركة غير عادية في ساحة الاعتصاب، بيد أنه لم يلق بالا للأمر، فما أكثر المواكب الدينية في ذلك الميدان. ولم يلبث أن وجد في بشاشة فلور دي ليس وترحيبها ما أنساه كل ما عداها. وكانت وحدها في البيت مع أمها. بيد أن الفتاة أشارت بعد قليل إلى الميدان عبر الشرفة وقالت:

– يبدو أنهم سيشنقون اليوم ساحرة أمام باب الكنيسة بعد أن تكفر هناك عن آثامها ومعاصيها.

– وما اسم هذه الساحرة؟

– لا أعلم.

– ولأي ذنب سيشنقونها؟

– لا أدري. ولكن دعنا من هذا وقل لي بربك: هل أحببت من قبلي؟

– أقسم لك يا ملاكي أنني لم أحبب من قبلك امرأة أبدا..!!

وكان هو نفسه يعتقد في صدقه، لأنه كان من ذوي الطبائع الهوائية التي تعيش في اللحظة الحاضرة، ولا تكترث للماضي ولا تتذكره.

وفي هذه اللحظة دقت ساعة نوتردام اثنتي عشرة دقة. وكان الجمع الذي يملأ رحبة الميدان قد بلغ الألوف، فسرت فيهم همهمة سرور، لأن هذه هي اللحظة التي حددت من قبل لابتداء ساعة الفصل.

وفي هذه اللحظة أيضاً كان فيبوس قد أطبق على عنق فلور دي ليس بشفتيه يمطره بقبلات محمومة، فتأود عود الفتاة واحمر خداها وقالت:

– أوه. دعني بربك يا فيبوس، فقد تدخل والدتي في أي لحظة! وهيا نتفرج على تنفيذ حكم الإعدام، فإن هذا الصياح يؤذن بابتدائه.

وأقبلت على الميدان عربة مكشوفة سوداء جلست فيها الفتاة، وقد شد وثاق يديها وراء ظهرها، ولا يسترها غلا غلالة رقيقة. وشعرها الأسود الطويل يتموج طليقا وراء ظهرها العاري.

وعرفتها فلور دي ليس فصاحت:

– يا يسوع! أنظر يا ابن العم الجميل، أنها الفتاة الغجرية صاحبة العنزة.

ونظر فيبوس واكفهر لونه وقال متلعثما:

– أي فتاة وأي عنزة؟

– ألا تذكرها؟

– لست أدري ماذا تعنين.

– لا تدخل. بل قف لتشاهد نهايتها التي تستحقها عن جدارة فلم يجد فيبوس مناصا من البقاء.

وكانت الفتاة هادئة الأسارير، غير مكترثة بشيء، فاكتسبت من هدوئها جمالا فائقا مس قلوب الناس جميعا.

ووقفت المركبة المكشوفة أمام باب الكنيسة الكبيرة فساد الناس صمت مطبق، واشرأبت أعناقهم. ثم انفتح الباب، وترامى إلى أسماع الناس صوت المنشدين من داخلها يرتلون صلاة الغفران.

ونظرت الفتاة فرأت جوف الكنيسة معتما- وكانت قد ودعت ظلمة السجن إلى نور الشمس منذ قليل- فأوجست، بيد أنها تماسكت.

وتولى كبير الجلادين فك قيودها، وأمرها أن تنزل فنزلت، ثم شرعت تصعد سلم الكنيسة الكبير حافية القدمين، ومن ورائها عنزتها تملأ الجو بثغائها.

وعندما وقفت بباب الكنيسة انقطع الترتيل، واقترب منها قسيس فوضع بين يديها شمعة موقدة وزنها رطلان كنص الحكم.

ثم خرج من عتمة الكنيسة إلى نور الشمس أمام الباب موكب حافل من القسيسين استرعوا انتباه الناس بثيابهم القاتمة. أما هي فلم يستلفت نظرها إلا كبيرهم الذي سار في مقدمتهم. فإنها ما أن رأته حتى سرت في أوصالها رجفة عنيفة.

لقد كان هو الأسقف كلود فرولو.

وأومأ الأسقف إلى حراسها فارتدوا حاسرين، وتركوها وعنزتها في أعلى سلم الكنيسة. وفطنت إلى أن عيني الأسقف كانتا ترمقانها، في هذا الموقف الرهيب، بنظرات تفيض حبا ورغبة وغلا وحفيظة وغيرة.

ودنا منها الأسقف ثم قال بصوت سمعه الجميع:

- أيتها الغجرية. عسى أن تكوني ق تضرعت إلى المولى سبحانه كي يفتح لك باب رحمته ويغفر لك ما ارتكبت من ذنوب.

ثم مال فوقها كأنما ليتلقى جوابها وهمس في أذنها:

– ما زال في الوقت متسع لإنقاذك، أتكونين لي؟

فرشقته بنظرة صارمة وقالت:

– أغرب عن وجهي، وإلا فضحتك على الملأ.

فابتسم ابتسامة صفراء كالحة وقال:

– ومن ذا الذي يصدقك أيتها التعسة؟ أتكونين لي؟ هذه فرصتك الأخيرة!

– أجبني أولا، أين فيبوس؟

– قلت لك مات.

– إذن أموت كما مات.

فكز على أسنانه وقال مغيظا:

– إذن تموتين، حتى لا ينالك غيري.

ثم استدبرها ودخل الكنيسة مطرقا، وظلت هي حيث كانت تنتظر مصيرها. فأشار أحد القسوس إلى الجلاد إيذانا بأن مهمة الأسقف قد انتهت، فانقض الجلاد عليها وشد وثاقها وراء ظهرها.

وفي هذه اللحظة استدارت لتهبط الدرج، فأصبح وجهها إلى شرفة بيت الكونتس، وبذلك وقع بصرها على فيبوس واقفا مع خطيبته.

وبدا لعينيها كما كان يبدو لها دائما في اليقظة والخيال، فارع الطول، منتصب القامة، وضاح الجبين، فكاد قلبها أن يقفز من حلقها، وجعل يركض بين أضلاعها، واندفع الدم إلى وجهها، وكأنما انبثقت في بدنها الواهن عشرة أرواح.

أسرورا محضا ما كان بها؟

أنه سرور ولا مراء. ولكنه لم يكن سرورا محضا، بل خالطه استنكار عجيب. استنكار لكذب القاضي، وكذب الأسقف. فهذا هو في ثوبه العسكري الأنيق مشرقا صحيحا معافى.

ولم تملك نفسها، فهتفت بأعلى صوتها:

– فيبوس! فيبوس!

وهمت دون أن تدري أن تمد نحوه ذراعيها، لنداء، أو توسل، أو عناق..

ولكن وا أسفاه! لقد كان ذراعها موثقين من خلاف.

ولا نرتاب في أن الضابط الوسيم سمع النداء، فقد مال إلى الأمام، وهمس إلى صاحبته بشيء، ثم دخل الاثنان.

وجن جنون أزميرالدا. أليست جريمتها التي تشنق عليها أنها قتلت الكابتن فيبوس دي شاتوبير؟ فكيف يتفق ذلك وها هو ذا أمام عينيها حي يرزق؟

لقد لقيت في جريرة هذه التهمة ما ينوء به أشد الرجال. وكان عزاؤها بعد ما لقيت أنها ستسلم الروح لتلقاه حيث سبقها في عالم الموتى.

أما وهو حي، فلا طعم للموت، وما أعذب الحياة..

وسقطت مغشيا عليها.

وأسرع النائب العام لدى المحكمة الكنسية، وهو الأستاذ جاك شارموني فأمر بحملها إلى العربة كي تستأنف إجراءات التنفيذ.

ولم يكن أحد ممن احتشدوا في الميدان، وفي الشرفات المحيطة به، قد نقل بصره من محور الالتفات، وهي الفتاة التي ينتظرون شنقها في لذة تعدل لذتهم من قبل بمشاهدتها راقصة ومغنية، ولهذا لم يفطنوا إلى تمثال كان جاثما بين تماثيل واجهة الكنيسة، وهو يحدق بعينه الواحدة تحديقا فاحصا، كي يشهد ساعة الفصل من تلك المأساة.

لم يفطن إلى وجوده أحد، ولو أنهم فطنوا لما عرفوه، فهو ببشاعته وجموده عن الحركة أحرى بأن يكون تمثالا من تلك التهاويل الصخرية لا بشرا سويا.

ورأى كازيمودو الفتاة وهي تسقط على الأرض مغشيا عليها، ثم رأى الجلاد يحملها مع معاونيه كي يضعها في عربة الإعدام.

وكان إلى جانب الأحدب حبل طويل غليظ، هو حبل الناقوس الكبير الذي طالما تعلق به وتأرجح في الهواء مع دقات ماري. فتعلق عندئذ بهذا الحبل، ولفه حول معصميه، ثم راح يهبط مستعينا به فوق واجهة الكنيسة في خفة أشبه بانسياب قطرة من المطر فوق صفحة من البللور الصقيل.

وما يدري الجلادون إلا وقد هبط عليهم هذا الوحش من السماء، فركب أكتافهم وصرع ثلاثتهم بضربتين قاضيتين من قبضته الهائلة، ثم حمل الغجرية كأنه يحمل دمية محشوة بالريش، وبوثبة واحدة كان قد دخل بها من باب الكنيسة، وهو يصيح:

– في حمى بيت الله!

وقد تم هذا كله في سرعة عجيبة، كأنه عاصفة من البرق الخاطف أو الصواعق المنقضة، فقد دخل الناس وبوغتوا فسمروا في مكانهم. ثم لذ للجماهير ذلك العنصر المفاجئ في الملهاة التي جاءوا يتسلون بها، فهتفوا مصفقين:

– مرحى مرحى! في حمى بيت الله!

وأفاقت أزميرالدا من غشيتها على دوي الشعب وهتافه، ففتحت عينيها ورأت وجه كازيمودو لصق وجهها، فأغمضتهما ثانية كأنما تفضل ذلك على رؤية وجهه الدميم.

أما الجلاد وأعوانه فقد وقفوا مشدوهين. ذلك أن قانون ذلك العصر كان يجعل من الكنائس الكبرى التي يقوم عليها أساقفة حمى محرما يستجير به الفارون من وجه العدالة، فلا يكون لأي سلطان في الدنيا عليهم سبيل، وكانت كنيسة نوتردام من أهم تلك الكنائس، فاسقط في يدهم.

أما كازيمودو فوقف من داخل الباب المفتوح وقد ثبت ساقيه وباعد بينهما فكأنهما عمودان متعانقان من أعمدة الكنيسة الرخامية، وكان رأسه الضخم مرفوعا فكأنه في عفرته أسد هصور، وقد رفع ذراعيه إلى أعلى بالفتاة المشدودة الوثاق كي يراها الناس، وكأنها ريشة أو ثوب متهدل لا يعجزه حمله على هذه الصورة. فطغت روعته وهو في ذلك الموقف على دمامته النموذجية.

كان رائعا جبارا، ولكنه كان رفيقا بها حتى لا تذعر ولا يصيبها من قوته الهائلة سوء. فقد كان يعلم علم اليقين أن هذا الكنز الثمين هش رقيق.

وخيل إلى الناس لفرط رقته أنه يخشى عليها من لفح أنفاسه، فقد أحاطها بذراعيه وحملها فوق صدره الضخم، وهو يحوطها بالحنان والرعاية، فكأنه أم رؤوم تضم طفلتها إلى صدرها كي تلقمها ثديها.

ورأوه بعد ذلك يرمقها بعينه الواحدة بنظرات تكاد تسيل رقة وتقطر حنانا وإشفاقا وعتابا. ثم رفع عنها بصره، فرأى الناس في عينه بريقا خاطفا من السعادة والحبور والزهو.

رأى الناس هذا كله، وكانوا أخلاطا من الرجال والنساء، ومن السفلة والأخيار، ومن الكبار والصغار، ولكن شعورهم بما رأوا كان واحدا: فبكت النساء وضحكن في آن واحد، وألهب الرجال أكفهم بالتصفيق وشقوا حناجرهم بالهتاف.

أن هذا اللقيط الذي طالما نبذوه واحتقروه وكرهوا دمامته، كان في هذه اللحظة جميلا جمال الروعة والقوة والنبل والإقدام.

وشعر بجلال الموقف، فنظر إليهم نظرة المزهو بتفوقه عليهم، فقد انتصر وانتقم بفعلته هذه من احتقارهم وكراهيتهم، وانتقم أيضا من كل ما يمثل ذلك المجتمع القاسي من قوانين وعدالة، أليس قد انتزع فريسة المحكمة وطريدة القضاء- بين سمع الشرطة وبصرهم- من أيدي الجلادين، وهم ينظرون ولا يستطيعون شيئا؟

وبعد أن استمرأ طعم انتصاره دقائق معدودات، جعل يجري في مشيته العرجاء إلى داخل الكنيسة، وحمله الثمين فوق صدره.

وأسف الناس لاختفاء هذا البطل عن أنظارهم، بيد أن أسفهم لم يضل إلا دقائق معدودات، ثم سمعوا صوته وهو يطل عليهم من قمة الكنيسة وأسيرته بين ذراعيه، وهو يهتف هتافا كهزيم الرعد.

- في حمى بيت الله!

في حمى بيت الله

ونعود إلى الأسقف كلود فرولو، فترى أين كان حين تمت هذه المعجزة على يد كازيمودو، فأفلتت تلك الفريسة من الحبالة التي نصبها لها؟

أنه كان قد خرج من أحد أبواب الكنيسة الخلفية، حتى لا يرى خاتمة المرأة التي أحبها أكثر مما أحب الدنيا والآخرة..

وجعل يضرب في الشوارع، ممعنا وهو لا يكاد يرى موطئ قدميه لشدة ما كان يعصف في رأسه من دوي هائل وما يتدفق في شرايينه من دم فوار بحرارة الحمى.

وطرقت أذنيه وهو في هذه الحالة أصوات هتاف الجماهير، فسبق إلى ظنه أن الفتاة قد لقيت مصيرها المحتوم، فزفر زفرة حارة، وصم أذنيه بسبابتيه وأسرع الخطى. وانطلق يترنح في مشيته ويتخبط، حتى ألفي نفسه في أرباض باريس، وسط الحقول. فهدأ قليلا، وتمهل حتى أفرخ روعه.

وحينئذ بدأت خواطره تتضح، وتمثلت أمام عينيه تلك التحفة البشرية التي هويها فهوت به وهوى بها، وكانت قضاءه وكان قضاءها.

وارتعدت فرائصه وهو يتمثلها كزنابق الوادي طهرا ونقاء. ترى كيف طاوع ذلك التعس فيبوس قلبه على أن يدنو منها بدنس، وهي التي كانت

نظرة واحدة منها حسبه ليكون أسعد العالمين في هذه الحياة، وفي الحياة الأخرى أيضا؟

وصور له الوهم هذه الأقحوانة الندية وقد التهمتها أعين الغوغاء المحتشدين في ساحة الاعتصاب، فجن جنونه وراح يضرب صدره بكفيه ونشج بالبكاء.

وزين له الخيال أي هناءة كان يرفل في بحبوحتها، لو لم يكتب له في سجل المقادير أن يتقيد بهذا الطيلسان الأسود الذي يحتم عليه تبتل الرهبانية، ولو لم يتم الله عليه عذابه فتعترض طريقه هذه الجنية، ولو لم تشأ المقادير القاسية أن تنشق الأرض عن فيبوس هذا..

وأذاب قلبه عندئذ اليأس والحنين، فتوالت زفراته، ثم استبطن أغوار نفسه فقرأ آيات الحقد والضغينة، ورأى أي جراح غائرة تركتها في حشاشته هذه الفتاة. فأخذته العزة، وندب كبرياءه، واستراح لما جنت يداه.

ولم يشعر بنفسه إلا وهو موغل بين المزارع، وقد جنحت الشمس إلى المغيب، وقد تشوش شعره، واختلط تفكيره، فعاد أدراجه إلى كنيسته وقد أخذت رياح المساء تلطف حرارة جبينه المحموم.

ونعود إلى كنيسة نوتردام، ذلك الحمى الذي يلوذ به المجرمون فلا تنالهم يد ولو كانت يد الملك، ولا تقوى على انتزاعهم إلا سلطة البرلمان بعد إجراءات خاصة.

ولما كانت نوتردام ملاذا شرعيا، فقد خصصت فيها حجرة لمن يلوذ بها من الهاربين من يد العدالة. وهذه الصومعة قائمة فوق سطح الكنيسة بين الأبراج. وفي هذه الحجرة وضع كازيمودو أزميرالدا من بين ذراعيه، وحل وثاقها، ولبث إلى جوارها ينتظر أن تفتح عينيها. فلما فتحتهما رأت باريس بأسرها تحت أقدامها، ومن فوقها سحنة كازيمودو البشعة، فتذكرت ما حدث لها من المفاجآت العجيبة، فاعتدلت فوق الأريكة التي كان قد أضجعها فوقها ونظرت إليه نظرة غريبة فيها جفاء وعتب!

- لماذا نجيتني؟

فتحير بماذا يجيب وهو لم يسمع ما قالت، ولكنها لم تكن تدري أنه أصم، فكررت عليه سؤالها، فلم يزد على أن أطرق وانصرف، فعجبت لأمره، ولبثت وحدها تحاول أن ترتب خواطرها المتناقضة وتميز بين الحقيقة منها والخيال.

ولم يلبث كازيمودو طويلا حتى عاد إليها، فوضع بين يديها حزمة كبيرة، ففتحتها لتجدها عامرة بثياب الصدقة التي تأتي بها المحسنات إلى الكنيسة لتوزيعها في المناسبات على المحتاجات، فتذكرت عندئذ أنها تكاد أن تكون مجردة من الثياب، فتضرم وجهها خجلا، وأدرك معنى هذا الخجل، فأسرع بالخروج.

وتناولت أزميرالدا الحزمة فانتقت منها ثوبا ارتدته، وإذا الأحدب يدخل عليها وقد حمل حشية وسلة. فبسط الحشية فوق الأريكة، ثم قدم

السلة بين يديها، فإذا فيها قدر به ماء، وخبز، وشيء من الطعام. وأشار إلى السلة وقال بصوته المرتفع:

– كلي أولا...

ثم أشار إلى الحشية وقال:

– ثم نامي...

وكانت الحشية حشيته التي يفترشها والطعام قوت يومه.

ورفعت أزميرالدا وجهها على نية الابتسام وتقديم الشكر، ولكن لسانها عصاها، والابتسامة ماتت على شفتيها، لأن هذا الشقي كان من الدمامة بحيث لا تقدر النفس على التغاضي عن قبح صورته، فخجلت من نفسها وطأطأت رأسها، فصاح:

– أراني أرعبتك، فإني أعلم مبلغ دمامتي، ولكن كذلك براني الخالق، ولكن لا عليك، وأني أعفيك من التطلع إلى وجهي. وبحسبك أن تسمعي صوتي، لتعرفي ما ينبغي أن تفعليه. الزمي هذه الحجرة ما طال النهار، فإذا جن الليل فاخرجي وتجولي فوق سطح الكنيسة ما شئت. ولكني أحذرك من مغادرة هذا المبنى، وإلا وضعوا يدهم عليك وأعدموك، فيكون في ذلك هلاكي.

وهمت الفتاة أن تحمل نفسها على النظر إليه، بيد أنه أسرع بالخروج وتركها وحيدة بين طعامها وفراشها، فأطرقت ساعة تفكر في حنانه ورقته

على ما فيه من دمامة وخشونة، وكيف حاول أن يخطفها، ثم كيف سقته جرعة الماء وهو على آلة العذاب، ثم ها هو أخيرا ينقذها من بين أنياب الموت.

وقامت تتفرج على مسكنها الجديد. أنه حجرة ضيقة، بها كوة تطل على ساحة الاعتصاب، وليس فيها إلا هذه الأريكة الخشبية التي بسط كازيمودو فوقها حشيته، فعادت إلى الجلوس، ودفنت رأسها بين يديها، لكنها لم تلبث أن انتفضت وصرخت مذعورة، لأن شيئا ناعم الملمس داعب ساقيها.

ولكنها سرعان ما افتر ثغرها عن ابتسامة وضاءة. فقد كان هذا الشيء الناعم هو جالي التي تبعث سيدتها بعد أن اختطفها كازيمودو.

وضمت أزميرالدا رأس جالي إلى صدرها وبللته بدموع الفرح.

وباتت أزميرالدا ليلتها في تلك الحجرة، وأدهشها ألا تفتح عينيها إلا بعد أن لذعتها أشعة الشمس، فقد طال عهدها بالأرق، حتى كادت تنسى عادة النوم.

ولم تكن أشعة الشمس كل ما في الغرفة، فقد كان هناك أيضا وجه كازيمودو القبيح، فأسرعت بإغماض عينيها، ولكن عبثا فعلت، فقد خيل إليها أنها تراه وهي مغمضة العينين.

وزاد الطين بلة أن صافح صوته مسمعها قائلا:

– لا تخافي. فإني صديقك، ولم آت إلا للاطمئنان على راحتك، فهل يزعجك كثيرا أن أملأ عيني منك وأنت مغمضة العينين لا ترين وجهي؟ لا حرج عليك، فإني منصرف.

ففتحت عينيها لتجده قد خرج فعلا، فأطلت من الباب، فإذا به رابض إلى جواره في استكانة الكلب الذليل. فبدرته وهي تغالب تفرزها:

– أدخل.

ولم يسمعها طبعا ولكن خيل له سوء الظن على ضوء ما تعوده أنها تقول له ابتعد، فشرع يبتعد عن المكان وهو مطرق. فصاحت متعجبة:

– قلت لك اقترب.

فزادت دهشتها لإمعانه في الابتعاد، فجرت وراءه وقبضت على ذراعه، فسرت لملمسها في جسده رعدة، ورفع إليها عينيه في انكسار، فرآها تجذبه إليها، وطفح وجهه بالبشر العظيم. بيد أنه رفض أن يصحبها إلى الحجرة، وظل واقفا في سدة الباب وهو يقول:

– هذا لا يجوز، وأنى للبومة أن تدخل عش اليمام؟

فجلست أزميرالدا وجعلت تنظر إليه في عجب وهي صامتة، وهو يخالسها النظر على استحياء لما يعلمه من تلك القسمة الجائرة! فهي تنظر إلى أقبح وجه، وهو ينظر إلى أجمل طلعة.

ودام الصمت برهة، إلى أن سألها متعجبا:

– هل كنت تطلبين مني أن أدخل؟

فأومأت برأسها أن نعم، فتردد لحظة ثم قال:

– يؤسفني أنني لم أسمعك. فأنا في الواقع.. أصم.

فشهقت أزميرالدا، فابتسم مستسلما وقال:

– لم يكن ينقصني في نظرك إلا هذا كي تتم أوصاف بشاعتي ولكن هكذا خلقني الله، وأنا في الواقع لم أضق يوما بقبح منظري إلا عندما رأيت جمالك الباهر. فأخذتني الحسرة على نفسي.

وسكتت متحيرة لا تدري كيف تجيبه، ولو أجابته ما سمعها فأدرك سبب حيرتها، وابتسم قائلا:

– أجل أني أصم، ولكن في وسعك أن تتفاهمي معي بالإشارة، واستطيع أن أفهم الكلام أيضا إذا تكلمت ببطء، من حركات الشفاه.

فابتسمت وقالت:

– إذن بين لي لماذا جازفت بإنقاذي؟

– تسألينني لماذا نجيتك؟ وهل نسيت أنك جزيتني على محاولة اختطافك، بجرعة ماء بارد وأنا مشدود إلى عجلة التعذيب؟ أنني دميم ولكني لا أنسى المعروف.

وخشى أن تخونه دموعه، فنهض منصرفا، فاستبقته، فقال:

– كلا. أكره تنغيصك وتعكير صفوك بمنظري، وأنت تغالبين اشمئزازك رحمة بي. خذي هذه الصفارة لتنفخي فيها كلما رغبت في استدعائي.

وتوالت الأيام على هذا النحو الرتيب، حتى هدأت نفس أزميرالدا، وبدأت جراح نفسها تندمل، فوجدت بذور الأمل في سريرتها تربة صالحة.

وعاودها التفكير مرات في ذلك الضابط الجميل، وآلمها أنه رآها تستقبل الموت في غير اكتراث، وأنه نسى عهدها. ثم غلبها الحب على أمرها فقدرت له عذرا على مسلكه هذا، فهو ربما اعتقد أنها هي التي طعنته بالخنجر تلك الطعنة.

وتمزق قلبها، وودت لو عرفته بأي ثمن أنها لم تفعل ذلك. وحز في قلبها أنه يمكن أن يصدق أنها وهي التي تفتديه بالروح يمكن أن تقدم على تلك الفعلة.

ومع الزمن خف اشمئزازها من دمامة كازيمودو بعض الشيء. وفي ذات يوم وقفت تتسلى بالنظر من النافذة الصغيرة، فرأت فيبوس، فكادت تقذف بنفسها من شاهق. ثم تذكرت الصفارة فنفخت فيها. فأقبل كازيمودو في الحال، فأشارت إليه أن يقترب من النافذة، فأطل ورأى الضابط يجتاز الساحة متجها إلى بيت الكونتس. فعرفه على الفور، وكيف لا وهو بطل الموقعة والسبب في تعذيبه.

وشعر كازيمودو بطعنة تصيب قلبه، ولكنه تماسك وسألها:

– هل آتيك به؟

فتهلل وجه الفتاة وصاحت:

– نعم. وأسرع بربك.

فلم تتحمل أعصابه نظرتها الضارعة، وانطلق لا يلوي على شيء.

ما أن وصل كازيمودو إلى أديم الأرض حتى بصر بالضابط يدخل بيت فلور دي ليس، فلم يجسر على الدخول وراءه، وربض تحت الشرفة ينتظر خروجه. وكانت الشمس قد جنحت إلى الغروب. وأبصر من مكانه وجه أزميرالدا وهي تطل من الكوة. ثم خيل الليل وتقدم حتى أوشك أن ينتصف، وكازيمودو لم يبرح مكانه.

ولما عيل صبره، انفتح الباب وبرز منه الضابط وفتاة في مقتبل العمر، ثم رآهما الأحدب يتعانقان، ودخلت الفتاة وأغلقت الباب، فامتطى فيبوس جواده الذي كان مربوطا إلى جوار الباب، فوثب كازيمودو وأمسك بعنانه، فصرخ الضابط غاضبا، دون أن يعرف كازيمودو لشدة العتمة، بيد أن كازيمودو لم يأبه له وقال بصوت هادئ قدر الطاقة:

– تعالى معي يا كابتن، فهناك من يريد التحدث إليك.

– أتركني أيها الوغد، فليس هذا وقت كلام.

– سيدي. أنها سيدة.

– مرحى! ولكن أتحسبني يا هذا مستطيعا أن ألبي نداء كل أنثى تعجب بي؟

– أنها جميلة.

– وإن أذهب وأخبرها أنني مقدم على الزواج.

فيئس كازيمودو وصاح:

– أنها الغجرية، أزميرالدا.

فارتاع فيبوس وصرخ في وجهه:

– يا للشيطان! فلتذهب إلى الجحيم.

ثم رفع سوطه فضرب به وجه كازيمودو، وألهب جواده بمهمازيه فابتلعه الظلام.

وعاد كازيمودو إلى الكنيسة وهو يتميز غيظا، فوجدها لا تزال حيث تركها أمام النافذة. فلما رأته مقبلا وحده سبته، فقال:

– سئمت الانتظار، ولابد أنه خرج من الناحية الأخرى، أو لعله سيبيت هناك.

– قبحك الله يا أقبح خلقة، أغرب عن وجهي!

ونعود إلى سيدنا الأسقف. فنراه قد علم بكل ما وقع لفاتنته بطبيعة الحال وكيف أنها تقيم في كنيسته، ويجمعهما سقف واحد.

وبديهي أنه كان في عذاب مقيم. وأن المطامع والآمال عادت تراوده ليلا ونهارا. وفي ذات يوم دخل عليه شقيقه جيهان، فقطب الأسقف في وجهه وسأله وهو لا يرفع بصره عن كتاب بين يديه:

– ما الذي جاء بك؟

فقال جيهان في تلعثم:

– حداني الشوق إلى رؤياك.

– أهذا كل ما هناك؟

فاستجمع الشاب الماجن أطراف براعته وريائه وقال:

– شقيقي العزيز المفضال، أنا أعلم الناس بمبلغ حكمتك، وبمبلغ افتقاري إلى غالي إرشاداتك، لذلك جئت أنهل من هذا المورد العذب.

– وبعد الديباجة؟

– الواقع أنني إنسان خاطئ هالك، وقد صح عزمي على التوبة، وانتويت استئناف الدراسة بكل عزم وجد. ولكنني كما تعلم كنت شابا تالفا.

– وبعد؟

– والشاب التالف لا يبقى على كتب ولا أوراق، والأوراق والكتب يحتاج شراؤها إلى نقود ولهذا جئت.

– لا نقود لك عندي.

– هذا شيء يؤسف له حقا يا أخي العزيز.

– يؤسف له أو لا يؤسف له، قلت لك أغرب عن وجهي.

– يا أخي إن لم يسعد النطق فليسعد الحال.

– كفي. اذهب ولا تلح.

– يجب أن أنذرك أنني سأحترف اللصوصية، بل أكثر من هذا. أنت عدو الغجر، وسأعتنق أنا دين الغجر وأطوف معهم شوارع باريس.

– في داهية.

فرمق جيهان شقيقه بنظرة طويلة متوعدة، ثم استدبره وانصرف.

وفي هدأة الليل، وقد أخذ الكرى بمجامع الأجفان، واستسلمت أزميرالدا لملائكة النعاس تأسو جراح يقظتها، أيقظها من نومها حس حركة في حجرتها. وكان نومها خفيفا، ففتحت عينيها وأبصرت على ضوء الذبالة الخافتة وجها يحدق فيها، كان أهون على نفسها أن يكون وجه شيطان،

فصرخت، فانقض عليها الأسقف وكم براحة يده فمها، ثم طبع شفتيه المحمومتين على كتفها العاري، فأخذت تخدش وجهه بأظافرها كي لا يقبلها، ثم جذبت شعره في قسوة بكلتا يديها، فأفلتها وهو يلهث وقال:

– لقد غلبتني على أمري، لا يهنأ لي نوم ولا طعام.

ثم هجم عليها يريد أن يضمها إلى صدره، فتذكرت أزميرالدا الصفارة، ونفخت فيها نفخة دوت في صمت الليل، فصاح الأسقف:

– ما هذا؟

ولكنه لم يشعر إلا وقد اجتذبته قبضة جبارة فوقع على الأرض، وجثم فوق صدره مخلوق هائل، عرف فيه ربيبه كازيمودو.

وعرفه كذلك كازيمودو، فسرعان ما نهض من فوقه، ووقف مطأطئا ذليلا كالكلب المذنب. وانقلب الموقف فأصبح الأسقف هو الذي يرغي ويزبد ويهدد.

وأومأ كلود إلى كازيمودو أن يخرج، فركع الأحدب وصاح متوسلا:

– مولاي. افعل ما بدا لك، ولكن لن تمر إليها إلا على جثتي.

فدفعه الأسقف في صدره. وانقلب على أعقابه حتى ابتلعه الظلام، وهو يزمجر بصوت كأنه نذير العاصفة:

– كلا. لن تكون لأحد إن لم تكن لي.

نقل جيهان خبر وجود أزميرالدا في الكنيسة إلى جماعة الغجر. فكان بيير جرنجوار يأتي إلى ساحة الاعتصاب في كل يوم، على أمل رؤية أزميرالدا مطلة من بعض النوافذ، ولمحه الأسقف غداة تلك الليلة التي ردته فيها أزميرالدا خائبا، فنزل إلى الساحة وفاجأ جرنجوار، بأن وضع يده على كتفه وقال له:

– أراك لم تنس زوجتك الغجرية؟

– مرحى يا سيدي الأسقف. أنني إن نسيت زوجتي، فمن أين لي أن أنسى جالي؟

– يسوؤني أن أبلغك خبرا محزنا عن زوجتك.

– رباه! ماذا أيضا؟ أهي مريضة؟

– لقد قرر البرلمان حرمانها من الحصانة، وبعد يوم أو يومين سيقبض عليها. فهل يهمك أمرها كثيرا؟

– لقد أنقذت حياتي من الموت يا سيدي. وليتني أستطيع رد الجميل.

– هذه مسألة صعبة. ففكر في حل، على أن يكون ذلك قبل فوات الأوان.

– لدي فكرة يا سيدي الأسقف، ولكنها تحتاج إلى الجرأة والعزم.

– وما هي؟ فإني صادق الرغبة في مساعدتك.

فمال جرنجوار على أذن الأسقف وأسر إليه بحديث طويل أعلن الأسقف اطمئنانه إليه.

وما هي إلا ساعات حتى كانت رحبة المعجزات أو دار الأعاجيب تموج بحركة لم تألفها تحت جنح الظلام، فاصطف جيش جرار من المتشردين واللصوص وقطاع الطريق وذوي العاهات، ثم انتظموا في كتائب عقد لواء كل كتيبة فيها لأمير، وزحفت كل سرية وفيلق في طريق مستقل، ولكن هذه الفيالق جميعا التأم جمعها في ساحة الاعتصاب أمام باب كنيسة نوتردام.

وكان كازيمودو قد قام منذ قليل بجولته الليلية المعتادة، فاطمأن على سلامة الأجراس في أبراجها، ثم تفقد أبواب الكنيسة، فأدهشه أن يجد الباب الكبير مفتوحا. فأسرع يحكم رتاجه الضخم. ثم صعد إلى سطح الكنيسة ولزم باب حجرة أزميرالدا لحراستها.

وشعر بشيء من القلق الغامض، فنزل وجعل يتفقد الأبواب مرة ثانية. فإذا به يجد ذلك الباب الكبير وقد رفعت مزاليجه، فأغلقه بيده وصعد إلى السطح وهو يعجب في دخيلة نفسه لهذه الظاهرة الغريبة.

وظاهر أن ذلك الباب المفتوح كان جزءا من الخطة التي اشترك الأسقف في تدبيرها، وهو يرمي إلى خروج الفتاة بالقوة من الكنيسة، كي تبتعد عن أنظاره من جهة، وكي يمكن تطبيق القانون عليها من جهة أخرى.

وفي الساعة المتفق عليها التأم شمل جيش رحبة الأعاجيب تحت القيادة العامة لملك تونس كلوبان ترويفو، وعلى الجناحين بيير جرنجوار وجيهان فرولو، واصطف الجميع في انتظار إشارة الهجوم لاختطاف أزميرالدا.

وأضيئت المشاعل، وتحسس كلوبان باب الكنيسة. فإذا به موصد. فاستولى العجب على بيير جرنجوار، بيد أن كلوبان لم يتردد في الأمر باقتحامه، فأسرع دوق بوهيميا إلى كومة من الأخشاب أمام بعض العمائر في الميدان، وأحضر كتلة ضخمة حملها عشرة رجال فانهالوا بها على الباب الضخم. ولكن الباب اهتز ولم ينفتح.

أما جيهان ففكر في حيلة. وأحضر سلما كان من أدوات تلك العمارة فوضعه على جدار الكنيسة وهو يؤمل في الوصول إلى داخلها سالما، حيث يفتح بيده الباب للجيش.

وفجأة وقع شيء لم يكن في الحسبان. فقد انهالت على الجيش قذائف الحجارة من فوق سطح الكنيسة، ومن مواضع متفرقة.

وفي هذا الوقت كان جيهان قد تسلق السلم، ونجح في الوصول إلى نتوء في واجهة الكنيسة، فتبعه في الصعود فريق من الرجال، ما كادوا يصلون إلى القمة حتى قلبت السلم بهم يد جبارة، فسقطوا من حالق على الأرض فتهشمت أضلاعهم وارتفع أنينهم.

واعتقد جيهان أنه أفلت، وتأهب للوثوب داخل الفناء كي يفتح الباب، وإذا بذراعين هائلين يقبضان على خاصرته، ورأى وجه كازيمودو يحملق فيه في الظلام، فاستولى عليه الرعب، وحمله كازيمودو كأنه ريشة، وقفز به، ثم قذف به الجيش المهاجم، فسقط لا حراك به.

ولم تزد هذه الخسائر جيش الأوباش إلا حماسة وإصرارا، وأخذ الباب يهتز تحت ضرباتهم اهتزازا عنيفا. وهم يظنون أن القائم بالدفاع عن الكنيسة جيش كامل مدرب.

وتمكن الأوباش من الحصول على جملة سلالم، نصبوها في وقت واحد، فأسقط في يد كازيمودو وجعل يغدو ويروح كأنه وحش كاسر وهو يصرخ:

– ساعدني يا رب.

وهداه الله فتذكر كمية كبيرة من الرصاص كانت معدة لإصلاح السقف، فأخذ غلقا وجعل ينقل أمام كل ميزاب كومة منها، ثم وضع حولها الحطب وأشعل النار، وسرعان ما انصهر الرصاص وتدفق من الميازيب في وقت واحد، فوق جماجم المهاجمين فارتفع صياحهم وعلت لهم ضجة كبيرة.

وفي هذه اللحظة كان خبر هذا الهجوم قد وصل إلى مسامع الملك، فأصدر أمرا إلى جنود الحرس بالتدخل فورا لقمع الفتنة والقبض على

الساحرة لشنقها. ولكن الأحدب ظن أن هذه الجنود هي النجدة التي ابتهل إلى الله في طلبها، وأسرع إلى حجرة أزميرالدا ليبشرها بالنجاة.

ولكنه لم يجد أزميرالدا في حجرتها، ولا في أي مكان من الكنيسة.

***

هبت أزميرالدا من نومها مذعورة على ضجة ذلك الهجوم الليلي، فأطلت من الكوة ورأت ذلك المنظر المروع، فأدركت أنها موضع هذا الهجوم، وهمت أن تنادي كازيمودو، وإذا بالأسقف وقد هجم عليها وخنق صرختها بيده، ثم حملها وانطلق بها من باب الكنيسة الخلفي.

وظل الأسقف يجري وهي فوق ذراعيه حتى وصل إلى برج رولان، فوقف يسترد أنفاسه اللاهثة. ثم أخذ يشرح لها الخطر المحدق بها ويخيرها بين الموت والحياة معه. فلما لم تستجب له خطر على ذهنه خاطر، فدق جدار البرج وصاح: "أيتها الأخت جيدول، اقبض على عنق هذه الغجرية، فإنها من القبيلة التي سرقت وحيدتك".

وأسلم يد الفتاة إلى قبضة العجوز المجنونة، وانفلت كي يدعو رجال الشرطة للقبض عليها. ولم تقاوم أزميرالدا، فقد ذهب الحزن بلبها. أما الأخت جيدول فراحت تسبها وتتوعدها بعذاب الدنيا والآخرة، فقالت أزميرالدا: "وما الذي اقترفته؟".

– أتسألينني يا فاجرة؟ إذن فاعلمي أنه كانت لي ابنة وحيدة لا أرجو من الحياة سواها، فسرقتموها مني يا أولاد الأفاعي.

– ولكني لم أكن قد ولدت حين كانت لك طفلة أيتها العجوز. فأطلقيني لوجه الله، فإني أراهم قادمين.

– ردي إلي ابنتي أولا.

– ومن أين لي ابنتك؟ واها لي! أنت فقدت ابنتك وأنا فقدت أهلي.

– اسمعي أيتها الغجرية، أعيدي إلي ابنتي أطلق سراحك وأنجيك، ألا تعرفينها؟ سأريك علامة تدلك عليها. هذه هي فردة حذائها. وكانت الفردة الأخرى في رجلها.

وارتعدت فرائص أزميرالدا حين رأت ذلك الحذاء المطرز، وبيدها الطليقة فتحت القلادة الصغيرة المزينة بالزمرد الزائف حول عنقها، وأخرجت منها فردة الحذاء الأخرى. وعندئذ انقلبت العجوز من حال إلى حال، ومدت ذراعيها من بين القضبان تتحسس وجه أزميرالدا وتصيح: "بنتي! بنتي!".

أما أزميرالدا فوقعت على عنقها تبلله بدمعها. ثم جعلت العجوز تضرب القضبان بيدها كاللبؤة الهائجة. ثم التقطت من أرض الصومعة حجرا كبيرا جعلت تضرب به أحد القضيبين المتآكلين من الصدأ حتى كسرته، ثم كسرت القضيب الآخر، واجتذبت بقوة الشياطين ابنتها

فأدخلتها الزنزانة التي ليس لها باب. ثم عكفت عليها تدللها وتهدهدها، وهي تشدو بالغناء وقد ذهب الفرح المفاجئ ببقية العقل، بعد أن ذهب الحزن بالقسط الأكبر منه.

ودوت في الفضاء سنابك الخيل، فتنبهت المرأتان، واستولى عليهما الذعر، ولكن العجوز هدأت روعها وأخفتها وراء ظهرها حين وقف مقدم الجنود أمام النافذة وسألها عن الساحرة التي قال الأسقف أنها في عهدتها، فأجابته: "لقد عضت يدي فأطلقتها".

– ومن أي جهة هربت؟

– لست أدري.

وهم الرجل أن ينصرف، لكنه رأى القضبان محطمة، ففطن إلى الخدعة وأمر رجاله بالهجوم على الصومعة. فاستأسدت المسكينة في الدفاع وكأن فيها قوة عشرين رجلا. وراحت تصرخ في الجنود:

– أيها اللئام. أنها ابنتي. وجدتها بعد ستة عشر عاما.

– وماذا نصنع وهذه إرادة الملك؟

ثم أحضر الجنود الفؤوس وشرعوا في هدم البرج. ثم أخذوا أزميرالدا إلى مصيرها المحتوم.

***

لما أيقن كازيمودو أن الفتاة قد اختفت وهو مشغول بالدفاع، جعل يضرب رأسه بيديه، ويضرب الأرض بقدميه، ويجذب شعر رأسه، ويصرخ ويولول، فلما اقتحم جنود الملك الكنيسة جعل يدلهم على جميع المخابئ والأركان وهو يظن أنهم جاءوا لإنقاذها، كما كان يظن أن الأوباش هم الذين جاءوا لإيذائها.

ولم يعثر جنود الحرس بقيادة فيبوس على أثر للفتاة، فانصرفوا يائسين، واستمر هو في بحثه وتنقيبه، صامتا تارة، ومولولا تارة أخرى. ثم لما أيقن أنه لا وجود لها في الكنيسة صعد إلى حجرتها التي عاشت فيها تلك الأسابيع القلائل تحت رعايته وعطفه، فجعل يقبل موضعها من الحشية، وتراب الأرض، ثم يضرب الجدران برأسه، لعله يتحطم ويتخلص من الحياة. فلما فشل في الانتحار بتلك الطريقة كي يتخلص من آلامه سقط على الأرض متداعيا وهو ينوح كالثكلى.

ثم خطر له أن والده بالتبني لابد أن يكون هو المسئول عن اختفائها، فاستولى عليه الحزن، ولكنه لم يحقد عليه عرفانا بجميله.

وقام بعد انتصاف الليل يطل على ساحة الاعتصاب. فرأى زحاما شديدا، ثم لمح الأسقف واقفا، وهو يحدق في ذلك الزحام باهتمام بالغ. فأيقن أن في الأمر سرا، ولم يلبث ضوء الفجر أن كشف له السر. ففي الميدان نصبت مشنقة. وصعد الجلاد وفوق كتفه جسم ناحل في ثوب عرفه كازيمودو. وكانت الفتاة مغشيا عليها.

وكاد عقل كازيمودو يذهب وهو يرى بعينه الجلاد يعلق أزميرالدا في حبل المشنقة ثم يتركها معلقة فيه، والناس ينظرون ويتصايحون.

وجمد الدم في عروق الأحدب، ولكنه فطن إلى حركة بدرت من الأسقف الذي لم يكن يشعر بوجوده لشدة استغراقه فيما يرى.

لقد انفجر الأسقف ضاحكا ضحكة لا تمت إلى ضحك البشر بصلة. ولم يسمع كازيمودو صوت ضحكته، ولكنه رأى وفهم.

ودون أن يدري ما هو صانع، حمله كازيمودو بين يديه، ثم ألقى به من شاهق، فسقط على الأرض جثة مختلطة المعالم.

أما كازيمودو فالقي على جثة أزميرالدا المعلقة في المشنقة نظرة توله، ثم زفر زفرة كاد ينشق لها صدره، واختفي عن الأنظار.

وبعد عام عثر العمال في مقابر الصدقة بضاحية مون فاكون على جثة شاذة التكوين لرجل ضخم الرأس مقوس الظهر والصدر ملتوي الساقين، وقد احتضن جثة امرأة في رداء أبيض.

وكذلك كانت مشيئة القدر أن يجمع الموت بين كازيمودو وأزميرالدا الحسناء في أكفان الفناء بعيدا عن حياة كلها كذب وأطماع وغدر وبلاء.

الفهرس